

اقرأ

بقايا كل شيء !



مكتبة الإسكندرية
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

Bibliotheca Alexandrina

0168770

أنيس منصور

دار المعارف بمصر

بقایا کل شیء !

أنیس منصور

بقایا کل شیء !

اقراء ٢٦٢ - اكتوبر سنة ١٩٦٤

ملتزم الطبع والنشر: دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م.

كلمة

هذه الصفحات هي بقايا دموع . . . صدى صرخات . . . ترددت
بعيداً . . . في نفسي ، وفي نفوس الآخرين . . .
لها طعم الملح ، ولسع النار ، ووخز الإبر ، وإلحاح الضمير ،
وبريق الأمل . .
إنها خريطة لأعماق . .

وليست أعماق ، ولا كل الأعماق ، واضحة . . .
فأنا دائماً أحاول ، دون ملل ، أن أوضح نفسي لنفسي ، أن أسلط
نفسي على نفسي ، أن أقلب نفسي بيدي وأتفرج عليها . . برفق كأنني
أحبها ، وبقسوة كأنني أكرهها !
وبين كراهيتي لنفسي وحيي لها : تتساقط الدموع ، ويتطاير
العرق ، وتتمزق آهاتي ، وتضيع . .
وأضيع أنا . . فأنا لست إلا آهاتي !

وتنسحب كل ألوان الطيف ولا يبقى إلا لون دنيابي : مرارة الطفولة ،
وحيرة الشباب ، وفزع الرجولة !

ومن ومضة العين الخائفة ، ومن رجفة النفس القلقة ، ومن موت
أصابعي على قلمي ، ومن ابتسامة زائرة لها لون الملح ودفء النار ، وطعم

الضمير ، من كل هذا ؛ كتبت صفحات هي بقايا نفسي ، وشظايا
الآخرين ...

إنها بقاياي ... إنها شظاياهم !

أنيس منصور

صاحب مصنع

رأيت فى قرية أحد الفلاحين يملك مصنعاً أنيقاً . . المصنع أبيض ناعم . . إنه يتحرك وصاحب المصنع يمشى وراءه . . وأحياناً يتعب صاحب المصنع . فيجلس إلى جوار الحائط . . . أى حائط . . ويسند رأسه ويحملق فى الأفق . . وفى يده عصا . . وينام وعيناه مفتحتان . . فإنه متعب للدرجة أن جفنه العلوى لا ينطبق على جفنه السفلى . . . إلا بصعوبة . . إن جاذبية الأرض لا تشد جفنه . . وإنما تشد دموعه من حين إلى حين . .

وعند ما يصبحو هذا الفلاح ويتنبه إلى أن مصنعه - مصدر حياته ، مصدر ثروته - قد انتقل إلى مكان بعيد . فإنه يصبحو من نومه أو من يقظته . . ويمد يده إلى الأرض يجمع بعض الوقود لهذا المصنع . .

لأن المصنع يعمل كل يوم . . ويتتجأ كل يوم . . ويأتى بالمصنع ويحمله على ذراعيه . . على صدره . . فى حنان . . كأم وجدت طفلها . .

ثم إذا هو يربط المصنع الصغير بحبل ، ويلف الحبل حول رجله هو ويضع الوقود خلف المصنع أو أمامه . . ويعود إلى الحائط ويسند ظهره . . ويلقى بجسمه على النبوت الذى يحمله فى يده ، ويتطلع

إلى سحابة في السماء .. إنها لحاف طائر ، إنها سرير من حرير .. وعلى هذا
 السرير يتمدد وينام .. ويترك مصنعه الصغير يعمل .. ولا يدهش أبداً
 عندما يجد المصنع الأبيض الناعم يتطلع هو الآخر إلى السماء .. إلى
 السحاب .. ثم يسند المصنع الصغير رأسه إلى القيد .. إلى الحبل وينام ..
 .. هذا الفلاح يملك إوزة !

تحت السلم !

« كان وجه جدتي العجوز أبيض ناصعاً . . وكان باسمأ أيضاً ، كان جدتي العجوز قد نسيت أنها ماتت ! » ..

صاحب هذه العبارة هو الكاتب النرويجي العظيم كنوت هامزن . وجاءت هذه العبارة في قصة « الجوع » .

ويذكرني بهذه العبارة ، كل صباح وكل مساء رجل عجوز لا يعرف أحد بالضبط متى ولد ولا حتى متى يموت . ولا أحد يعرف من أين جاء . إنه مثل « طرح البحر » ألقت به الحياة إلى تحت السلم . . إنه يشبه جذع نخله . . إنه جاف مجعد . . وكلامه مجعد . فالكلمة الواحدة تتحول إلى حرف واحد أو حرفين متداخلين . ولا أحد يفهم ما يقول . فاللغة التي هي وسيلة المواصلات بين الناس لم يعد لها معنى عنده ، ولم تعد لها ضرورة . . فهذا العجوز يطلق أصواتاً كالحيوانات أو كالبائس البدائية

فهنالك من يقول إنه ابن أحد العمدة وقد حاول أبوه أن يزوجه إحدى قريباته فرفض . وهرب من أبيه . وجاء إلى القاهرة يكسب قوته بعرق جبينه . ولم يكن صاحب حرفة .

فهو ابن ذوات . ولذلك وقف في الشوارع يسأل الناس أن يعطوه ما يستحقه من أموال أبيه . فهو يجمع حقوقه من جيوب الناس . .

ويقال إنه جمع مئات الجنيهاً . . . وهذه المئات مكدسة في صفائح . والصفائح موجودة تحت السلم . وقد حدث في العام الماضي أن ذهب هذا العجوز « عم سيد » بإحدى الصفائح وأعطاهما لرجل غني . . أمانة ، واكتشف الرجل الغني أن بها مائتي جنيه من الفضة . ويقال إن عم سيد غضب من هذا الرجل الغني ، ورفض أن يسحب أمواله من عنده !

ويقول أناس آخرون : إن عم سيد هذا يضع الأموال في جيوبه ويتصدق بها على الفقراء . .

ولكن الذى لا أفهمه ولا أدريه أن هذا الرجل يطالب نفسه بمسئوليات ثقيلة . فهو يصبر على أن يكنس وأن يمسح وأن يتولى حراسة البيت . . برغم أنه عجوز وعاجز عن السير والحركة . لا أحد يطالبه . . لا أحد يسأله شيئاً . ولكنه يعمل ليلاً ونهاراً حتى يسقط من الإعياء على السلم . . وأكاد أضع حدائى كل يوم على صدره فيموت . . وأرى وجهه في النور فأجده هادئاً باسمياً كأنه نسي أنه مات . . أو أنه يجب أن يموت . . ولكن ما هو الموت ؟

إن هذا الرجل ليس ميتاً فهو يتنفس وهو يدافع عن حياته بما بقي لديه من قوة .

ولكنه ليس حياً أيضاً . فالذى هو الذى له مشكلة ، وهذه المشكلة هى حياته هو ، كيف يحسنها ؟ كيف يوسع نطاقها ؟ كيف يعادى ؟ كيف يصادق الآخرين ؟ كيف يواجه غده وبعد غده ؟

إنه ليس حياً ، وليس ميتاً . . . إنه مستمر . . . كأنه قناة ضيقة ،
 بها ماء . . . والماء يزحف على الأحجار الصغيرة في قاعها . . . أو كأنه
 غصن شجرة يتهاى للجفاف التام . . . فيه عصارة حياة ، ولكنها تتناقص
 يوماً بعد يوم . . .

إن الحياة تقوم فيه بعملية جرد أو تصفية ، فهي أطفأت نور عينه ،
 وقطعت الحرارة عن قلبه ، وحددت إقامته تحت البسلم .

وأشعر أمام هذا الرجل بالإشفاق والكراهية والفرع . . .
 إنه مسكين ليس له أحد ، وليس لأحد . . . وأكره أن ألقى هذا
 المصير ، وأكره أن أموت عضواً عضواً هكذا . . . أن أموت على دفعات . . .
 أن أموت بالتجزئة . . .

وأفزع من هذا الاستسلام الباسم . . .
 كأنه نسي أنه مات . . . أو يجب أن يموت . . .

وفي الليل وفي النهار عندما أعود إلى البيت أراه يزحف على السلام . . .
 لا أدري كيف . . . كأنه قطعة من الخبز القديم تجرها ملايين النمل . . .
 ثم أرى التراب يزحف وراءه ويتعلق به ، كأن تراب القبر يطارده . . .
 إن عم سيد هو الحى الذى يلاحقه قبره . وهو باسم الوجه . كأنه
 لم يموت بعد !

شكة إبرة ؟ !

كنت أصرخ وأبكي وأقول بصوت مذبوح : والله يادكتور . .
اعفني من حياتي كلها . . اعفني من مشا كل وعذابي . . إنني أحمل
الكثير علي كتي . . أرحني يادكتور . . هذه فرصة انتظرتها طويلا . .
اجعلني أنام هكذا يوماً أو شهراً أو سنة . . أو اتركني أنام إلى الأبد .
و كنت أرفع رأسي والضوء يتدفق ساخناً كاوياً . . فلا أرى إلا أربعة
من المرضين وإلا منضدة طويلة تلمع بالسكاكين والمشارط والمناشير
وكل أدوات القتل والتعذيب . . و كنت أرى وجه الطبيب ، إنه صديقي
الدكتور ف . . . إنني لم أعد أرى فيه وجه الصديق . . إنه وجه جاد
قاس لا يعرفني ولا ينظر إلي . . ولا ينطق إلا بعبارة واحدة هي : يا أخى
إنها شكة إبرة ! شكة إبرة !

وسقط رأسي من كتي إلى المنضدة التي تمددت عليها وعدت أقول :
أعطني حقنة بنج أخرى . . بل أعطني كل ما عندك من البنج . . أعطني
حقنة في قلبي . . في عقلي . . بل أعطني حقنة في أسرتي بل في حياتي
كلها . . ماذا تعمل أيها الطبيب ؟ أنت تنتزع أحد أظفري من أحد
أصابعي . . ليس هذا هو الظفر الوحيد في جسمي . . انزع كل أظفري
... هناك أظافر أخرى في حياتي . . وكلها توجعني . . في عيني وفي يدي

وفي رأسى . .

وكان الطبيب يضحك والمرضون يضحكون وأسمع أصواتاً تشبه الكلام . . ولكنى غارق فى ألم وعرق وخوف ويأس .

وعدت أقول للطبيب : اعفنى من حياتى كلها يا دكتور . . هل تعرف ماذا أعمل . . إننى كعامل التليفون . . إننى أرد على مئات النداءات . . . مئات المتاعب . . كلها تتزاحم على رأسى فى آن واحد . . تصوريا دكتور هذا يحدث كل يوم . . اعفنى من هذه المكالمات . . حطم هذه الأجراس التى ترن وتئن . . اقطع الحرارة . . اقطع النور . اقطع الماء . اقطع أظافرى وأصابعى وحياتى كلها . .

لا أدرى كم من الوقت مضى وأنا أصرخ ولا أدرى ما أقول . . ولا كيف عدت إلى بيتى . . ولكن بعد ساعتين تماماً دبت الحياة فى أصبعى . . تفجر الدم . . والألم . . والدموع وأحسست بالمشارط والسكاكين والطبيب والمرضون كلهم يتزاحمون فى أصبعى ووراءهم وأمامهم ملايين من النمل والنحل . .

وظللت أرميهم جميعاً بأقراص مسكنة . . واختفى الطبيب والمرضات وذابت المشارط والسكاكين ولم يبق إلا النمل والنحل . . . ظللت ساهراً معها حتى الصباح .

إنها شكة إبرة ! ! !

هذه الليلة لك !

يا أى إنسان هذه الليلة لك ا . إن كنت حزينا اضحك . إن كنت سعيدا اضحك .

اضحك قبل أن ينصحك الأطباء بالاعتصام فى تحريك الشفتين والعينين . اضحك فزماننا مليء بالهموم . إننا غيرنا الدنيا حولنا ولم نغير .. إننا تقطع المسافة بين القطب الجنوبى والشمالى فى ثوان ، ونحتاج إلى سنوات لكى نصل من قلب إلى قلب . إن عقولنا فى العشرين ، وقلوبنا فى التسعين ، إننا لم نغير ، فما نزال نبكى عندما نولد . ونظل نبكى مدى الحياة .. ويبكى الناس علينا بعد أن نموت . فأنت ترى أننا نقرض دموع الآخرين ا .

هذه الليلة لك . لا تسأل عن المناسبة ولا تسأل من هو صاحب المولد . إنه أنت وكل الناس . وفى استطاعتك أن تولد الليلة دون بكاء . اخرج من البيت ، إلى أى مكان وفى أى وقت . ستجد الناس كلهم هناك فى انتظارك فى أجمل ملابسهم وأجمل نسائهم . هناك الموسيقى والطعام والشراب . املا حياتك بهم . انظر إلى وجوه أخرى غير وجهك ، واستمع إلى أصوات أخرى غير صوتك . اخرج من ملابسك من جلدك الحقيقى وجلدك الزائف .

هل تعرف الجلد الزائف الذى نصنعه جميعاً؟ إننى لا أريد أن أضيع وقتك وأن أشغلك عن الخروج إلى الشارع أو إلى أى مكان . . لن أستغرق إلا دقيقة واحدة . . أنت تعرف أن الحداد له يد غليظة وأن الفلاح له قدم غليظة ، وأن بائع العرقسوس ينحنى إلى الوراء ، وأن السقا ينحنى إلى الأمام . . إنهم جميعاً يتأثرون بالعمل الذى يعملونه . إن هذا العمل يترك أثره فى أجسامهم وفى نفوسهم ، وكل إنسان كذلك . فالعمل يضغط علينا . انظر إلى الخاتم فى أصبعك انظر إلى « جلدة » الساعة فى يدك . . إنها تركت أثراً يبقى بعد نزعها من يدك . . فتصور أنت أن هناك مليوناً مثل « جلدة » الساعة قد غطت أيدينا وأرجلنا وقلوبنا وعقولنا ، ليلاً ونهاراً . .

وهذه الليلة يجب أن نلتقى بها بعيداً ، أن ننساها . يجب أن تأخذ إجازة من نفسك من جلدك الزائف . . أن تكون اليوم إنساناً لا موظفاً ولا عاملاً . فأنت نسيت أنك إنسان ولم تعد تذكر الاسم المكتوب فى بطاقتك النقابية وبطاقتك المصلحية . . أنت شىء آخر ويجب أن تتذكر هذه الليلة أنك كائن آخر .

أنت الآن بين الناس . أنت الآن نقطة فى بحر حى . ليس هذا هو المهم . ليس المهم أن يكون الناس معك .

ولكن المهم أن تكون أنت مع الناس . فمن الممكن أن أتطلع إلى الناس ولا أراهم لأننى سرحان أو لأننى أعمى ، ومن الممكن أن أحضر حفلة موسيقية فلا أسمعها لأننى أطرش أو لأن هموماً داخلية تملأ أذنى بالقطن .

فالمهم أن أشعر بالناس ، أن أفتح لهم نفسى ليدخلوا ويضحكوا ويملئوها ويملئوني . إن الطيور تسبح فى الماء ولكنها لا تبتل لأن ريشها مغطى بالزيت والذين يسبحون يغطون أجسامهم بالشحم حتى لا تبتل أجسامهم إنهم فى الماء لا يشعرون به . . . وأنت فى الناس ولن تشعر بهم إلا إذا نزعْتَ هذا الشحم بل هذا الريش كله . . . وإلا فأنت الأطرش فى الزفة . . . وإلا فأنت السقا الذى لم ينس قربته يوم زفافه فحملها على صدره وراح يوزع الماء على المدعوين ونسى عروسه . . . فإذا هربت منه العروس فهى على حق ، وإذا ضحك منه المدعوون فهم على حق أيضاً .
 الليلة لك . فانس قربتك . وتذكر عروسك . والناس حولك . ~~ولا تفكر~~
 أبداً فى المناسبة التى من أجلها يفرح الناس هذه الليلة . اضحك . اشرب . ارقص . فإن الموت قريب . والناس يموتون فجأة فلماذا لا تعيش فجأة ؟
 لماذا لا تضحك فجأة ؟ لماذا تسأل الناس أو حتى نفسك عن المناسبة التى يحتفل بها العالم كله ؟

اضحك بلا سبب بلا مناسبة . . . سيكون لديك وقت لتعرف السبب والمناسبة فيما بعد

وإذا كان لا بد أن تعرف المناسبة . . . فالיום هو الكريسماس . . . ومن أجل ذلك يحتفل أتباع موسى وعيسى ومحمد . فى هذا اليوم ولد أحد دعاة السلام على الأرض . وكان مصيره هو نفس مصير دعاة السلام : العذاب والهوان والسخرية .

اليوم يحتفل الناس بذكراه . . فيشربون نبيذاً فى لون دم المسيح ،

ويصابون بصداع كالمسامير التي دقت في رجليه ... ثم على أحزانهم
وهمومهم السلام . . وفي نفوسهم المحبة !

لا تنظر في ساعتك . . فلدينا كثير منها في كل يد وفي كل حائط
وفي كل ميدان وفي كل صحيفة . ولكن انظر إلى وجهك في عيني الفتاة
التي تجلس إلى جوارك . . وعش معها . فالناس لا يعيشون إلا معاً . .
ولكن عندما يموتون ، يدخلون القبر فرادى . .

اضحك ، فهذه الليلة لك . . ولا تتذكر شيئاً من هذا الكلام !

دماغنا !

إذا كان مش عاجبك روح اسكن في الزمالك ولا في جاردن سيتي ..
مالناش نفس وإلا إيه .. مش كفاية اللي احنا فيه .

هذا كلام يقال للذين يحتجون على ارتفاع صوت الراديو بعد منتصف
الليل في بولاق، أنا شخصياً لا أحتج . . . لأننى أعرف هذا الرد مقدماً.
ولأننى لا أكون في البيت عند منتصف الليل، فأنا أهرب من الساعة
عندما تدق ١٢ مرة . . وأعود إلى البيت بعد ذلك بساعات . . وهناك
سبب آخر وهو أنه من الصعب أن يرى الإنسان اثنين يتعانقان عند
منتصف الليل حتى لو كانا عقربى الساعة . . لذلك أرجع مع الساعات
الصغيرة من الليل . . .

فهل عندك سبب لكى تفتح الراديو فيصرخ ويملاً الدنيا زعيقاً
ونعيقاً ؟ طبعاً قلة ذوقك وعدم تقديرك لشعور الغير حولك . . كأن
العمارة التى تسكنها ليس فيها أحد سواك وكأن ذوقك هو ذوق الناس
كلهم .. وكأنه لا أحد مريض ولا أحد يعمل ولا طالب يذاكر فليس
على الأرض سواك . . .

عندك سبب لاستخدام الميكروفون فى أية مناسبة . فى فرح أو فى
مأتم . طبعاً النفخة الكاذبة والتباهى والادعاء .

أنت عندك فرح . . أنت عريس . فما ذنب الناس يا أخى . .
 أنت سعيد بعروستك فبالرفاء والبئين أيها العريس . ولكن من قال إن
 سعادتك هذه واجب على كل إنسان . . ؟ على كل رجل وكل امرأة . .
 وما معنى أن يكون عدد المدعويين عشرين أو ثلاثين ثم تضع ميكروفوناً
 خارج البيت ليصبح عدد المستمعين مئات بالقوة ؟ . إنهم فعلاً مئات
 ولكنهم يلعنونك أنت وعروستك . . .

عندك ماتم . ليكن . البقاء لله ! وكل إنسان سيموت . ولكن من قال
 لك إن فقيدك هو فقيد الناس جميعاً ؟ من قال لك إن حزنك هو حزن
 البشرية . . . إن أحداً يا سيدى لا يعنيه أمرك . . أبداً . هذه حقيقة .
 إن حياتنا كقطار الصعيد . . ونحن أشولة . . ومقاطف وسلال تتساقط
 على طول الطريق . فلا يدرى بنا أحد والقطار يمشى . ويجب أن يمشى
 سواء كان عندك ميكرفون واحد أو مليون . ما ذنب الناس ؟ ما ذنب من
 لا يهتم أمرك ؟ ما ذنب الذين ليسوا من دينك أو من عائلتك ؟ . وإذا
 كان عدد الذين جاءوا لتعزيتك ٢٠ أو ٣٠ فلماذا الميكرفون ؟

كل شيء في بلدنا زعيق . . الكلام والسلام والخناق والأفراح والمآتم . .
 عندك سبب لهذا كله ؟ طبعاً هناك سبب وهو أن المتدينين أو المتحضرين
 هم أقل الناس ميلاً إلى الضوضاء وأكثرهم ميلاً إلى الوحدة إلى العزلة .
 كلما أحب الإنسان الهدوء كان متحضرأ . كل الذين سافروا إلى
 سويسرا لا يسمعون في شوارعها أى صوت . أى صوت . وعلى الرغم من
 هذا الهدوء التام تجد في الشوارع لافتات مكتوباً عليها : منطقة صمت . .

أى صمت يريدون هناك ؟ لا بد أنهم يريدون منا أن نكف عن التنفس من أجل المرضى والطلبة . . ولأن هناك حرية أخرى غير حرية الكلام هى حرية الصمت . . من حق كل إنسان أن يصمت وأن يستمتع بسكونه . فلا يجب أن نخرجه من صمته . كما أنه لا يجب أن نخرج لسانه من فمه فيتكلم بالقوة . . ولا يجب أن نقتحم عليه هدوءه . . أنت حر فى أن تتكلم ولكن بشرط ألا تعتدى على صمت غيرك . . حرية عجيبة لا نعرفها فى بلادنا .

إن الميكروفونات تشبه « البخاخة » التى تطارد بها الصمت كأنه ذباب أو بعوض !

وليس أسهل من أن تتحول من البدائية إلى الحضارة . . بسيطة جداً . بأصبع واحدة تستطيع أن تدير مفتاح الراديو . وبيدك تستطيع أن تنزل الميكرفون . . فكل ما يسرك أو يحزنك خاص بك أنت وحدك . . واحنا ما لنا يا أخى . . !

تحت أقدامنا

أبناء شارعنا ، لا ينظرون إلى فوق . . ففى ذلك خطر عليهم ، ففى الأرض حفر وفيها بالوعات وطوب وفيها أطفال صغار وعليها خضراوات وليمون وطماطم وتتساقط عليها أرغفة من الخبز . . وقد يصطدم الإنسان ببائع لبن أو يرتطم بتلميذة فى طريقها إلى المدرسة . . وقد يسمع من حين إلى حين : فتح يا افندى . . يا فتاح يا عليم . . صبحنا وصبح الملك لله . فالنظر إلى الأرض أحسن وأريح . .

وفوق . . فيه إيه ؟

لا شىء . . فوق مثل تحت . . ناس فوق بعض . . ثم فوق إيه ؟ فوق الأسطح أسوأ جداً من الشارع . . وأسوأ من الناس اللى تحت . . أسطح البيوت مليئة أيضاً بالحفرات والمطبات والتراب والعفونة . . وليس فوق إلا الفراغ . . بلاليص فارغة وصفائح وصناديق . . وقوالب طوب وحجارة وأعواد حديدية ، وطيور وأرانب . . ليس فوق إلا الفراغ وإلا « الفوارغ » . . وأسطح البيوت لا يسكنها إلا عدد قليل جداً من الناس . . إنها كالقمم . . ضيقة منعزلة باردة . . إن قمة الهرم العظيم ضيقة جداً . . منعزلة باردة . . الصراخ ينتهى إليها كهمس ، الأشياء تبدو منها ضئيلة جداً ، والرجال يبدون فى حجم الأطفال ، والأطفال فى حجم القطط . .

عندما تنزل الأمطار تتسخ أقدام الناس الذين تحت ، أما الذين فوق فتتسخ رؤوسهم . عندما تحدث الزلازل يهرب الذين فوق إلى تحت ، إلى حيث يعيش الناس ، إلى حيث تكون الضوضاء غطاء وغذاء لهم . . . لقد أقبل الصيف . . . وأقبلت السهرات الطويلة فوق . . . فوق الأسطح بين الكلاب والقطة والعرس والشعابين . . . وأقبلت المشاجرات بعد منتصف الليالى . . . والصرخات النائمة ، أقفل الراديو يا جدع يا لى هناك . . . اسكت . . . انت مالك . . . أنا مش عارف أنا . . . روح نام فى الزمالك . . . نامى يا ولىة . . . أدينى نائمة . . . الناس يقولوا إيه . . . يقولوا إيه بنسرق . . . ما لهم الناس . . . انت يا لى رميت علينا المية . . . اللى يلعن ويخرب ويحرق . . . إلخ .

* * *

ونحن أبناء هذا الشارع لا نعرف أين ستتجه بأنظارنا إذا قامت بلدية القاهرة وسدت أفواه الحفر ، وأحكمت غطاء البالوعات ، وجمعت الأطفال من الشوارع وأجلست بائعى الليمون على مقاعد . . . لا نعرف . . . فقد تعودنا النظر إلى ما تحت . . . تحت أقدامنا !

بلا أسف !

مرضك مسألة شخصية . . . تعبك حكاية تخصك أنت . . . عذابك كدموعك لا تدخل عيون الآخرين . فمن الذى يخفف عنك المرض ؟ الطبيب ؟ ممكن . إنه يضع يده على جسمك ، يحاول أن يقرأك على طريقة برايل ، ويضع أذنه على صدرك على ظهرك ، إنه يستمع إلى إشارات تلغرافية يبعث بها قلبك ويحاول أن يفكها ويخرج من جيبه ورقة ويكتب خطاباً إلى الجيوش التى تحارب فى دمك . . . إلى الجرائم والكريات البيضاء والحمراء . . . يطلب إليها أن توقف القتال وإلا . . . إنها كالرسالة التى ألقاها عمرو بن العاص فى النيل يطلب من النيل أن يمتلئ بالماء . . . وتكون النتيجة طبعاً ألا تتوقف المعركة . فيلجأ الطبيب إلى العنف ، إلى استخدام الأسلحة والمواد المتفجرة والمواد السامة التى تقتل الجرائم وترهق المريض أيضاً . ولكن الطبيب لا دخل له بعذابك ، ستظل تتعذب كما أنت . إن العذاب لا ينتقل إليه . . . فإذا نجحت « وصفة » الطبيب ، فإنه يشعر بالارتياح لأن تشخيصه للمرض كان دقيقاً . وإذا لم تنجح هذه الوصفة ، حاول وصفة أخرى . . . وثالثة ورابعة . . . وإذا ظهرت أعراض جديدة لمرضك فعنى ذلك أنك شىء غريب . وليس على الطبيب إلا أن يعود إلى كتبه . !

ويبقى عذابك كما هو ، والمعركة دائرة في الدم . لأنها تخضع لقوانين
أخرى ولتفاعلات لا شأن لها بالطب وعلمه وتجاربه وإرتيابه وعدم
إرتيابه . . .

والناس الذين يحبونك مثلاً . .

قد يكون مرضك مرهقاً لهم . هذا طبيعي . فأنت لا تعيش وحدك .
أنت تعيش في بيت وفي مكتب وفي مجتمع . ومرضك سيحدث بعض
الارتباك ، تماماً كما تتوقف السيارة في الطريق . ولكن نسيمشي المرور
بعد ذلك . وتظل أنت على جانب الطريق . إلى أن تتحرك من جديد أو
تفسح مكاناً لغيرك . . في الطريق أو في الحياة كلها . .

هؤلاء يجلسون حولك . يرونك تتقلب يميناً وشمالاً . كأنك سيجارة
تلفها يد قوية في ملاءة بيضاء أو في بطانية غليظة . . ولكنك تظل تتألم
أيضاً . فالألم يشبه الراديو المفتوح ، سيتكلم سواء استمع إليه أحد
أو لم يستمع إليه أحد . إن الألم ليس كالزكام ينتقل بالعدوى . إنه
تفاعل داخلي . إنهم يمدون أيديهم لك ويعودون بها كما كانت سليمة ،
سترى التأثير في عيونهم ولكن هذا التأثير ستراه عليهم أيضاً عند سماع أغنية
حزينة ، وعند مشاهدة فيلم حزين . كل إنسان لديه الكثير من المتاعب
والآلام التي تراكم بعضها فوق بعض . وتظهر في أية فرصة . . أية
مناسبة . . ومرض حضرتك هو الفرصة السعيدة ، التي تهتر لها نفوسهم
وتدمع لها عيونهم . . كما يحدث في الزلازل والبراكين . . ففي باطن الأرض
نيران والنيران لها بخار من الغازات ، يظل حبساً حتى يجد مكاناً ضعيفاً

في قشرة الأرض فيحطمه . . وترتجف الأرض ويتصاعد الغاز ويهبط المطر . . ومرضك هو هذه القشرة الضعيفة في هذه العلاقة بينك وبينهم . . ولكن يبقى عذابك كما هو . . .

وأخيراً أناس عزيزون عليك . . أمك . . حبيبك . . زوجتك . . ستراك الواحدة منهن فتبكي لحالك . . أو تبكي عليك . . ولكن دماءك تغلي ، وحرارتك عالية . . والمعركة دائمة . . لأن المتحاربين عريان وصم وبكم وحيوانات لا تفهم ولا ترى ولا تسمع ماذا يدور خارج جسمك . تبكي الأم وتتعذب جداً لك . . ولكن يبقى عذابك كما هو . . فلا علاقة أبداً بين تأثرها لك . . وبين مرضك . . إلا كالعلاقة بين زكامي الآن وبين عدم وجود فلوس معك الآن . . وقد تتعذب أنت لعذابها وخصوصاً أن التي تحبك وتحبها ستبالغ جداً في آلامك وتعبك . . وترى الزكام اختناقاً وترى الصداع موتاً محققاً . . وعذابها سيعذبك . . ولكنك لا تستطيع أن تخفف لها عذابها ، ولا هي تستطيع أن تخفف لك عذابك أبداً . .

بل إن الإنسان أحياناً يحس أن الذين يحبهم كأسنانه وضروسه التي يأكل عليها ويعيش بها . . وأحياناً توجهه هذه الأسنان ويتألم لها ومنها . . ويتمنى أن يقتلع الأيام كل هذه الأسنان . . ويضع مكانها طقماً من الأسنان الصناعية حتى يريح ويستريح . . حتى لا يتعذب لعذابهم ، وحتى لا يعذبهم عذابه . .

ومع ذلك ، وأنت تتألم ، سيبقى ألمك مثل جللك لا يتسع لأحد غيرك . . لأن مرضك هو معركة بين الكرة البيضاء والكرة الحمراء

والجراثيم والأملاح والفيتامينات والبناء والمهدم .

لا أحد « يشاركك » في الملك . . بالنصف أو بالربع أو بالعشر . .

لا أحد « يقاسمك » وجعك . لأن الألم كالموت يتلقاه الإنسان وحده ! .

صدقني ، لقد جريت ذلك . . وبلا أسف !

خيوط قصة

البطل شاب في السابعة والعشرين من عمره . طويل أسمر وطبيب ،
نخرج حديثاً ويتمرن في عيادة طبيب كبير . وهو طيب القلب . فيه
رجولة وشهامة ، وله مبادئ يتمسك بها . . والبطلة سيدة في الأربعين
من عمرها لها أولاد . وزوجة الطبيب الكبير . وكانت زوجة قبل ذلك .
وأحبت هذا الطبيب الكبير . وتركت من أجله زوجها الأول . وهي سيدة
جميلة . رأت هذا الشاب والتفتت إليه ، بعقلها وقلبها وأحبتة . وأحبها
الطبيب الشاب .

أما الأسباب التي أدت إلى هذا الحب أو هذا الميل . فهي أن
الطبيب الكبير قد أصبح مشغولاً عن زوجته . ليس مشغولاً بعمله ، ولكنه
مشغول عنها بنساء أخريات ، ولا ينجل هو أبداً من ذكر هذه الحقائق
ولكن الزوجة تحبه ، وتعرف نزواته ، وتعرف أنه مرهق وأن التغير أمر
ضروري للزوج . وأن الزوجة التي تريد أن تغير طبيعة الرجل وخصوصاً
إذا كان طبيباً فناناً ، كزوجها ، فإنها تطلب المستحيل .

وأحست الزوجة شيئاً آخر . أن زوجها حريص على إهانتها أيضاً .
أمام أصدقائه وأمام صديقاتها . وأن الغرض من هذه الإهانة هو لذة
تعذيبها . فهذه لذة شاذة عند الزوج ، قد ظهرت أخيراً ولم تكن تعرفها
من قبل . لقد كانت تجد هذه اللذة على صورة بخل شديد . فهو

حريص على أن يتلذذ لصراخها وهي تطلب منه المال لشراء الملابس
والسفر وتغيير أثاث البيت . وكان يجد لذة في الرفض .
فإذا رآها بملابس ممزقة ، وكذلك أولاده . . كانت هذه لذة تفوق
لذة الجنس عنده . .

ولاحظت أيضاً أن زوجها يدفعها إلى أشياء أخرى ليست كريمة . .
إنه يعرضها على أصدقائه ويغريهم بها . فإذا صدقوه ثار على الزوجة ،
وتلذذ بعذابها وأمعن في تعذيبها . . وأحست الزوجة أن الطبيب الكبير
كما كانت تراه فهو كبير عندما يجري عملية جراحية وهو يتقدم الأطباء
جميعاً في غرفة العمليات . ولكن عندما يجيء إلى البيت ، فليس طبيباً
ولا ممرضاً ، بل هو مريض ، ومريضه لا علاج له . . إنه ليس كبيراً
في نظرهما . وإن كان هو عظيماً ومشهوراً في عيون الناس . .

إنه ليس كبيراً عندما يأكل وعندما يجلس إليها وإلى أولاده . .
إنه إنسان عادي جداً ، بل أخط من الإنسان العادي . .
ورأت هذا الشاب . . إنه شيء آخر .

إنه شاب ، هو الآخر مخدوع في الطبيب الكبير . إنه يراه كبيراً . .
وأخذت الزوجة تروى للشاب كيف أن زوجها هذا ليس شيئاً
إطلاقاً . . وأنه سافل وأنه منحط وأنه بخيل وأنه مريض وأن فيه وحشية
الجرائم الفتاكة .

وبدأ الشاب هو الآخر يتحرك . . في هذه القصة . .

إنه يحب هذه السيدة الجميلة . إنه هو الآخر بلا تجارب . إنه

نحجول وينهيب الزواج من أية فتاة شابة، تقرأ المجلات وتذهب إلى السينما وتعرف الرقص وأحبت قبله عشرات الشبان . .
 أما الآن أمام سيدة . . هذا أفضل وأحسن .

وهي سيدة معروفة عظيمة . إن عشرات من مشاهير الرجال يطمعون فيها ويتمنونها لأنفسهم . وهو يكره أستاذه هذا فهو رجل أناى . وهو لا يطلعه على كل أسرار . وجهه لزوجته انتقاماً منه وانتقاماً لها أيضاً . وزواجه من هذه السيدة . هو انتصار وانتقام معاً .

إن هذه السيدة قد فتحت حواسه جميعاً . . لقد تحولت حواسه إلى أكف ضارعة . . تنتظر ما يملؤها . وكانت هذه السيدة تملأ حواسه . إنها امرأة قد جربت الحياة وعرفت الرجال . ولعلها هي الأخرى قد قررت أن تتزوج هذا الشاب .

وبدأ الشاب يفكر ، أو يتراجع .
 وكان تفكيره على صورة ندم . لأن ضميره قد صحا .
 فهو يتساءل : لماذا قررت الزواج منها ؟ لأنها قررت الانتقام من زوجها والانتقام دفعها إلى أن تتزوج أحد تلامذته .
 إنه الانتقام إذن ، وليس الحب . وجعل يقول أيضاً : ولكنى سأكون خائناً وجباناً ، إن الرجل قد ائتمنى على زوجته ، فإذا بي أخونه وأخونها .
 نعم أخونها أيضاً فإن ابنتها الكبرى تحبني وقد وعدتها بشيء كالصداقة أو كالزواج . ولا بد أن الفتاة الصغيرة قد صدقتني . وإذا كنت أنا ألهو وألعب فإن هذه الفتاة جادة ، ولا أريد أن أكون هذا الخادع

الحائن في بيت واحد . . وفي بيت أستاذي الطبيب الكبير . .

ولكن الزوجة تبكى وتقسم أنها تحبه ، وأن الذي تشعر به هذا ليس انتقاماً . ولا هي رغبها في فضيحة الزوج ولا في أن يتحدث عنه الناس . ولكنها تريد أن تكون زوجة للشاب الذي أحبه ، وأنها ستضحي بالطبيب العظيم وشهرته ومجده ، من أجل حبها .

ولكن الشاب يسأل نفسه : أليس هذا هو نفس الكلام الذي قالته يوم تزوجت الطبيب العظيم . . أليست هي نفس الكلمات ؟ وماذا كانت النتيجة . .

وأحس الشاب كأنه ثعبان كبير ، وكان خيطاً صغيراً قد دخل فيه ثم كسر أسنانه كلها . . وأصبح ثعباناً بلا أسنان . . ثعباناً لا يلدغ ولا يقتل . لقد فوجئ الشاب بأن قصته هذه قد عرفها كل الناس والذي قال للناس هو الزوجة . لقد تحققت الفضيحة إذن : وعرف الطبيب الكبير ذلك . وتحقق الانتقام أيضاً . وعرفت الفتاة الصغيرة خداع الطبيب الشاب . وحدثت النذالة أيضاً .

وكان على الثعبان الشاب أن يمضغ الخيط الذي تكسرت به أسنانه . وأن يلزم جحره . . ويتظر الأبطال الآخرين لكي يكملوا قصته . . فقد قرر هو أن يختفي عند النصف الأول منها . .

ولكن الانتقام والانتصار والعطف والشماتة ، ماتزال تتردد في أذنه عند كل مرة تتحدث إليه هذه الزوجة في التليفون في الساعات الصغيرة من الليل . . ولم تكمل القصة بعد .

حياة . . كلها طرب

أعصابي هذه الأيام كالأسلاك الشائكة والشوك قد اتجه إلى لحمي
ودمي . . إن هذه الأسلاك لا أستطيع نزعها مني ، إنها تشبه جلد القنفذ
الذي لبسته بالقلوب . . وفي كل ليلة تدور المعارك تحت نافذتي . . .
أصوات وصراخ . . وكلها تنزل فوق دماغي كالطوب . وكل طوبة
توجع لأنها تدق شوكة في جلدي . فأقفز من فراشي إلى النافذة أفتش
عن مصدر الصوت الذي أسمع ولا أراه . . إنهم ناس قد تمددوا فوق
الأسطح بين الأقفاص والصفائح والبلايص . . إنهم كالزواحف ،
حياتهم تراب ، ووجودهم زبالة ، وكلامهم طوب . . وأحياناً أقف
أبحث عنهم . . إنني لا أحسدكم على نومهم العميق . . حتى نومهم له صوت
يشبه صوت الضفادع وقد انحشرت في أفواههم . . إنني لا أقوى على
مقاومة هذا الطوب . . لا بإقفال النافذة ولا بوضع المخدات فوق رأسي . .
فهو كالقضاء والقدر . . إنه طوب كالصواريخ الموجهة لي وحدي . . ولا
أملك إلا أضعف الإيمان . وهو مقاومة الطوب باليد واللسان ، أي بالكتابة !
وتبدأ المعارك الليلية بهمس خفيف يشبه أقدام الجنود وهم يمشون على
بطونهم في الخطوط الأمامية . . وبعد ذلك تندلع النيران . . فتنتطلق
« عرسة » صغيرة بين الدجاج . . وتطاردها عبارات عالية . . حوش
يا جدد . . امسك عندك . . يا بنت ال . . .
والكلام يتجه أول الأمر إلى العرسة . . ثم إلى الزوجة النائمة . . ويهدد

الزوج يالقاء أولاده من فوق السطح . . وتنفتح النوافذ المجاورة . . ويبدأ
الجيران يالقاء كلام كالحجارة : يا راجل نام . . يا أخى خليلك للصباح . .
الصباح رباح . . قلقتم نومنا . . الله يخرّب بيوتكم . .

ويتخلى الرجل عن شتيمة زوجته ويتحول إلى ما هو أهم . . إلى شتيمة
أصحاب النوافذ . . وتنفتح نوافذ أخرى . . وتترشق النوافذ والأسطح
بالشتائم وتتكرر بعضها على بعض — كما يقول الشاعر المتنبي . . وفي
الأرض يعلو صوت عسكري الدوارية وهو يقول : مين هناك . . . يا ناس
اتهدوا . . حد لاقى نوم . .

ويعود التشابك بالشتائم : وانت مالك . . مالى ازاي . . ناموا . . نام
انت . . . اسكتوا . . اسكت انت . . هو ده حى ياناس . . روح اسكن
فى جاردن سیتی . . اخرس . . اخرس انت !

. . . وأنا أيضاً ! وقبل أن تصبغ الشمس الأفق بلونها الأحمر ،
يكون الأرق قد سبقها إلى صبغ عيني . . وقبل الفجر بساعات تبدأ
مظاهرة من نوع غريب . . . كل فجر ياناس . . يمر رجل صوته
كحجر الطاحون الذى يدور على قمح نصفه من الزلط . . وينادى :
يا سى عبد الله . . ياسى اسماعيل وحدوه ! .

إنه يناديهم للصلاة . . ويتكرر النداء عشرات المرات ، كأنه يريد
أن يتأكد من أن الناس جميعاً قد قاموا من الفراش ليشهدوا على تقواه
وعلى ورعه . . وتجاريه أصوات عبد الله وإسماعيل وهى مترددة بين
النوم واليقظة ، بين الطاعة والعصيان ، بين لعن أبيه والاستسلام . . .

ولا أستطيع بعد ذلك أن أنام دون أسمع صوت بائع الفول . . إنه شاب
بلدى أنيق . . له شارب يقف على شعرة واحدة . . وله طاقة قد استقرت
على جانب واحد . وينادى هكذا : يا حلاوة اللوز . . والنبي ما نام الليل . .
سهران . . النوم للعواجيز . . قول شباب قوى . . اللوز .

وحضرته يعاكس ابنة البحران التى لا أعرف لها مكاناً . . .

والضياء والضوضاء تزداد كلما ارتفعت الشمس . . وكلها تتلاشى
مع انطلاق الترام الذى يحاول اقتلاع القضبان والعجلات كل يوم . .
كأنه يريد أن يجرى على الأرض حافياً بلا عجلات ولا قضبان . . وكل
يوم أقسم أن أترك هذا البيت . . ولا أزال عند قسمى منذ عشر سنوات . .
وأنا لا أستطيع أن أضع القطن فى أفواه الناس . . ولا أستطيع أن أعطل
الورش الناجحة التى تدق الحديد الساخن والحديد البارد تحت نافذتى
فى « أخبار اليوم » . . التى تجعل من رأسى سنداناً ليناً . . وأظل أرزح
تحت الحديد طول النهار ، ويظل قلمى يرزح تحتى ليلاً ونهاراً . . إنه
عكازى الذى أهش به على غنمى . . فإذا جاءت غنمى عرجاء أو
مكسحة فلأننى أنام فى بولاق وأعمل فى عشش الترجمان . . ولأن جالى
ينطبق عليه ما تقوله أغنية صباح : طوب يا قلبى . . طوب يا قلبى طوب .
وكل ما أستطيع أن أعمله هو أن أضع القطن فى أذنى لأنعم بالهدوء الذى
كان يعيش فيه العبقري الأصم أديسون ، مخترع المصباح الكهربى . . .
وهى خطوة إن شاء الله فى الطريق الذى تربع فى نهايته الأنسة هيلين
كيلر . . . العبقريّة الأخرى التى لا تسمع ولا ترى ولا تتكلم !

الفكرة التى طاردتني

كنت على موعد مع غروب الشمس فى الإسكندرية . وأنا حريص على المواعيد وخصوصاً إذا كان هذا الموعد مع فتاة . والشمس ما تزال أجمل فتاة فى عالمنا ، إنها حواء الأولى . . إنها مصدر حياة كل حواء وكل آدم ، وكل حواء فى النبات والحيوان . . إنها أول كل شىء فى عالمنا الصغير . . وانطلقت من القاهرة على عجلات سرعتها مائة كيلو متر . . وكنت أجلس إلى جوار عجلة القيادة . . وبدأت السير بهمة وحماسة وأعراض ملل وأعراض خوف ولكن حاولت أن أنسى هذا كله والتفت إلى الطريق أمامى . وإلى جوارى جلس صديق هادئ لا يتحدث إلا قليلاً . . وفى المقعد الخلفى جلس صديقان . . أحدهما يدخن صامتاً . . والآخر ينام كطفل بلا هموم ولا متاعب . . وهكذا بدأت رحلتنا هادئة سريعة . .

وفجأة قفزت إلى رأسى فكرة سخيفة . . . فكرة مؤلمة . . . وأحسست كأن ذبابة دخلت عقلى . . وراحت تزن وتطن . . ولا أدري كيف أطردها ولا كيف أقتلها . . ورحت أطردها بأفكار آخر مضادة . . كأنها « الفليت » أو ال د. د. ت. . ولكن الذبابة لم تسكت ولم تكف عن الحركة وعن خربشتى من الداخل . . الفكرة هى : أن قلبى حاسس أننى سأموت

في هذا الطريق . .

وأخذت الفكرة تقوى وتقوى . . ولم يحدث لي هذا أبداً . وقلت لعل رادار القلب قد أحس بشبح الموت وهو على بعد دقائق أو أميال مني . . هل أرجع ؟ أرجع إلى أين ؟ . . لا هرب من الموت . لا هرب منه وأحتسى بمن أو بماذا ؟ هل أعود بهؤلاء الأصدقاء الذين بدأوا يضحكون ويمزحون وكأنهم يعرفون ما يدور بخاطري ؟ .

وتساءلت : ولماذا جاءت هذه الفكرة ؟ ومن أين ؟ هل أنا متعب . . إنني فعلاً لم أنم ليلة أمس . هل أنا كاره لهذه الرحلة . فعلاً أنا أكره قيادة سيارتي مهما كانت المسافة . . وهذه المسافة طويلة وسخيفة ومهلكة . . إذن التفكير في الموت هو تفكير في الهرب التام من هذه الرحلة ومن أى شيء آخر . أو أن هذه الفكرة هي فكرة مستجدية . . فكرة متسولة فكرة تريد أن تستدر شفقة هؤلاء الأصدقاء لكي نعود إلى القاهرة بدلاً من السفر إلى الإسكندرية . . وجعلت أسأل نفسي وكيف يكون الموت في هذا الطريق ؟ سيكون بأن تنزلق سيارتي على الرمال فتقلب . . وتكون نهايتي . . وحياة هؤلاء الذين يضحكون . . أو بأن نصطدم بأية سيارة أخرى . . أو بأن أموت أنا وحدي دون رمال ودون حوادث . .

وكأني أقاوم هذا كله . . بدأت أعتدل في جلستي وأتنفس بهدوء . حتى يبقى القلب نشيطاً يديق . . ومددت يدي إلى الراديو ففتحته . . لأرفع روجي المعنوية . . ثم خففت من السرعة وانتهت جيداً إلى حافة الصحراء . . وإلى السيارات القادمة . . فكل سيارة هي قذيفة موجهة إلى . .

موجهة نحوي أنا بالذات . . وأنا أعرف من الذى أطلقها . .

وشعرت بعد ذلك أو قبل ذلك لا أدري . . بشىء من الهوان . . بشىء من الضآلة . . فعربنى ليست إلا نملة تجرى فوق ظهر أفعى أسود تمتد من القاهرة إلى الإسكندرية . . وأحسست فعلا بشىء بين الحياة والموت ، بين الوجود والعدم ، بشىء من الضياع . .

واعتدلت مرة أخرى فى جلستى وقلت : إن هذا التفكير فى الموت هو وحده الذى سيجعلنى أموت ، هو وحده الذى سيشغلنى عن القيادة فأصطدم بأية سيارة . . ولذلك يجب أن أطرد هذا التفكير . . أن أنحى عن رأسى هذا الستار . . هذا الضباب وأن ألتفت إلى الطريق . . لكى أموت مفتوح العينين . . .

وكأننى أحسست أننى لم أحقق كل شىء فى نفسى قلت : عندما أصل إلى الإسكندرية سأنزل البحر . . سأستحم . . إننى لم أنزل بحراً فى حياتى . . لم أمد له يداً ولا رجلاً . . إن مياه كبرى لم توقعنى فى غرامها ولا أمواج دوفيل ولا فتيات كان ونيس . . ولم تعجبني عبارة «عندما أصل» . . فقد وصلت . . هذه الأشجار ، هذه المياه على الجانبين . . هذه الرطوبة . . وضيق النفس . . وباعة التين على الجانبين . . لقد وضلت .

وأدخل فى الشوارع ولا أرى علامات المرور . . ماذا بعد الحياة . . لا يهمنى أن تمتد يد عسكري المرور ويكتب ما يشاء من المخالفات . . إنها ضريبة الحياة . . إنها الفرحة بالنجاة . . ولم أسأل نفسى : النجاة

من أى شىء ؟

وعلى الكورنيش . . أحسست بشىء غريب . . أحسست أن الهواء
يفصل لى ملابس كلها من قماش مبلى . . وأن الهواء كأى ترزى
يستخدم الدبابيس لتظل الملابس على جسدى فهو يضع الدبابيس فى
كتفى وفى جنبى وفى ظهري وفى صدرى . . وظللت أنا أتكرمش وأتقلص
حتى صغر حجمى . . ولكن الترزى لا يختصر ملابسها . . إنه يختصرنى
أنا . . فأنا لا أشعر بقدمى اليسرى ولا ذراعى اليسرى . .

وتعبت من الطريق ومن الهواء . . وذهبت إلى غرفتى لأستريح . .
لأستريح من الفكرة التى طاردتنى من القاهرة إلى الإسكندرية . . وعندما
وضعت رأسى على المائدة تنهت إلى أننى طردت فكرة الموت بالاستسلام
له . . أليس النوم موتاً صغيراً ! !

وهربت الدبابة . . وبدأت أضيق من رائحة الد. د. ت ا

حرف البيب !

اليوب - أى اليوم - شعرت أننى كجزيرة قبرص . فهناك حصار شديد حولي . . حصار يخنقنى . . هناك أيد تمسك بعنقى من تحت الجلد . . وإننى لا أستطيع التنفس . . أحسست أن أننى كقناة السويس وأن باخرة قد انفجرت فيها . فأصبح المرور صعباً جداً . . وآمنت بأن التنفس تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفه إلا المزكوهون !

الطبيب يقول لى : لا علاج إلا النوم فى البيت . . .

ولزمت البيت وأقفلت الباب والشباك وتغطيت باللحاف . ووضعت رأسى فى طاقة . ووضعت الجوارب فى قدمى . . وارتفاع درجات حرارتى معناه أن هناك مقاومة هائلة فى جسمى وجعلت ألقى بالسوائل والحبوب لقوات المقاومة . . وشعرت أننى أحارب فى خنادق من البطاطين وأننى أنتظر نهاية المعركة . . فكلما شعرت بخيط من الهواء يصلنى بالعالم الخارجى تأكدت أن قوات المقاومة قد شقت طريقاً إلى عالم الحرية . . وكلما أحسست أن الهواء لا يدخل إلا بصعوبة أيقنت أن جزيرة قبرص بسبيل أن تستسلم . . فالمدافع تدق رأسى . ويران البطاريات تلمع فى عيني . . وصفارات الإنذار فى أذنى . . إن هناك مؤامرة على حياتى وإن هناك طاغية يعطينى الهواء بالبطاقة . ستيمر واحد كل دقيقة .

وضقت بظلام الغرفة وبأكداس الأغذية . . مللت حرب الخنادق . ولكن لكى أفوز بالحرية لا بد من القيود ولكى أنعم بالنور لا بد من ظلام

الحنادق . ولكي أعرف قيمة النسيم العليل يجب أن أمر بمحنة الهواء
المخنوق . . هذا ثمن الحرية !

حتى الهواء القليل الذي أمتصه أو أغتصبه بدا يخرج مطروداً على
هيئة سعال . بل إنه لم يكن هواء بل كان شيئاً ملموساً محسوساً خشناً
كالبرد يأكل حلقى . . ويلقى بنشارة حلقى حبوباً على شفتي . .

وأضع الترمومتر في فمي وأجده قد زحف إلى الأربعين . . وبدأت
أحلم وأفكر في درجة حرارة عالية . . وتخيلت أناساً لا أدري ما الذي
جمعهم في هذه اللحظات العصبية . . أرى وجهاً باسماء . . وأرى عينين
زرقاوين وأسمع صوتاً ناعماً وأعود برأسي إلى الوراء لأقول لها : وداعاً . .
ثم أعتدل في جلستي وأقول : لا وداع . . بل سأقاوم . . سأقاوم ماذا ؟
سأقاوم ذكراها . سأقاوم الطاغية الذي احتبس في داخلي وحبسني .

ولاحظت أن الإنسان في هذه الدرجة من الحرارة لا يفكر في شيء له
قيمة . . كل ما يفكر فيه هو كيف يتخلص من جحيم الحرارة والاختناق .
وبدأت أستعرض وجوه أناس يعيشون في هذه الدرجة الحرارية دائماً
رأيت أديب إنجلترا « جراهام جرين » . . إنه مصاب بنوع من الزكام
الذي يصيبه في مواسم الورد ويفقده متعة الشم . . والأديب الوجودي
ألير كامى . . إنه هو الآخر كان يلبس أكثر من بلوفر في الصيف وفي الشتاء
يلبس اثنين تحت القميص واثنين فوق القميص ويلبس البالطو أيضاً
ويضيف إليها جميعاً كيات من الأحمر تملأ حماماً صغيراً . . ومع ذلك
فهو سيد المفكرين . . وكاتب إيطاليا « كورتسيو ملبارته » كان يقول :

إن هناك أفكاراً لا يمكن أن تذوب إلا في درجة حرارة عالية . . في عاطفة قوية من الحب . . من الكبرياء . . من التضحية . . لا بد من الحرارة وعلى الفنان أن يساعدها بالوقود . . بالحرر أو بالمرض . .

ومع ذلك لم أتمكن من « إدارة » فكرة واحدة في رأسي . . كان الإنسان يفكر بأنفه . . والذي قال إن أنف كليوباترة قد غير التاريخ ، لم يكذب كثيراً . . إن أنفى الذى فقد وظيفته أياماً ، قد عطل تفكيرى نهائياً . .

والمزكوم لا يستطيع أن يقابل الناس أو هكذا أنا . . . فى يده منديل ، وفى جيوبه مناديل وفى عينه إحمرار وفى صوته ذبحة وفى نفسه قرف . . ويخشى أن تتقل عداؤه إلى الناس . . ولا زيارات ولا مقابلات . .

ثم انتظار فارغ . . انتظار فى الفراش حتى تنتهى المعارك فى داخله بين جيوش الزكام وبين جيوش الصحة . . ولم يكن أمامى إلا أن أترك نفسى ميداناً وأنشغل عن النتيجة لأشياء أخرى . . أى أشياء . . وقد حاولت أن أتسلى بحذف حرف الميم من كل ما أقوله ولاحظت أن حرف الميم يملأ معظم الكلمات . . وأنها محاولة يائسة . . ولو كنت ملكاً طاغياً وكانت إصابى بالزكام مزمنة لأصدرت مرسوماً بإلغاء حرف الميم !

وأحسن عبارة تصور حالتى الآن بالضبط هى التى تقول : إننى أقوب بن النوب أناب تانى . وقد اختفى حرف « البيب » نهائياً !

اتس . . اتس : لا مؤاخذه فإننى ما أزال أعطس !

عذاب كل يوم !

كان رأسى ليمونة وأنا أعصرها كل يوم . . وتبقى الليمونة فلا يتساقط منها شيء . . ولا أفقد الأمل

كان رأسى ساعة واقفة . . أهزها لكى تتحرك تروسها وتدور عقاربها . . فلا أسمع لها صوتاً ولا أياس . .

كأن الفكرة أو الفكرتين اللتين فى رأسى تشبهان « زهر » الطاولة . . أهزهما يميناً وشمالاً « وأقرص عليهما » ثم ألقى بهما على الورق فلا أجد عليهما أية علامة . . وأتعكز من جديد على أملى . .

وأنهض إلى الباب والنافذة وأقفلهما فقد تكون أفكارى كالوطاويط تخاف من النور . . أو يكون قلمى قد جف ولا بد أن أغمسه فى سواد الظلام . . وأسمع حولي الهمس والكلام والضوضاء ، وكلها مختلطة بعضها ببعض وأرفع قلمى إلى أعلى كأنه « إيريال » لعله يلتقط منها شيئاً . .

وأحياناً أتوهم أن كل الأفكار التى فى الدنيا باقية لا تزول وأنها تملأ الجو وأنها تدور حولي كأنها أسطوانات . . وهذه الأسطوانات فى حاجة إلى إبرة لكى تنطق . . وأجعل قلمى هو هذه الإبرة . . ومع ذلك لا أسمع أى شيء . .

كل شيء حولي كلام فى كلام . . الناس ألفاظ وجمل مفيدة وغير

مفيدة . . وكلها تدخل رأسى بلا ترتيب . . ويتحول رأسى إلى استوديو تصوير ورسم ونحت . ملء بلوحات وتماثيل وصور لا أعرف أصحابها . وأحاول أن أميز بينها جميعاً . وليست هذه المقالات إلا صلات تعارف بين أصحاب هذه الآثار الفنية جميعاً . .

ومشكلتى كل يوم هى كيف أرتبها الواحدة وراء الأخرى . . فى خيط ، فى حبل . . فى شريط سينمائى . . كيف ؟ لا أعرف . ولكن لا أستبعد أن يكون العلم الحديث قد وجد وسيلة لا أعرفها . ولذلك لن أفقد الأمل أبداً . وفى كل يوم أكتب خطاباً بهذا المعنى وأمزقه :

« عزيزى على أمين . . العلم الحديث الذى تتحدث عنه كل يوم . . والزراير التى تأتى بالمال والسعادة والراحة والمصانع التى أنشئت لصناعة قطع غيار لعقل الإنسان وقلبه وشحنها بالذكاء والحب والسلام . . وإيمانك بالتقدم المطلق للعقل الإنسانى ألم يهتد بعد لحل مشكلة مثل مشكلتى هذه ؟ »
 « إن مشكلتى هى أنى أريد أن يخرج الكلام من رأسى كما يخرج الحرير من رأس الدودة . . مع فارق واحد هو أن الحرير يخرج من رأس الدودة «سادة» وأنا أريده «مطبوعاً» ملوناً مشجراً . . وأنا لا أستبعد أن يتحقق ذلك قريباً .

« ولذلك أتقدم بطلب أريد أن تحققه لى فى «ليلة القدر» التى فتحتها «على الآخر» لكل قرائك . . وهو حجز نسخة واحدة من هذا الجهاز الذى يوضع فوق الرأس فيخرج الكلام مكتوباً كما يخرج من أحشاء أجهزة «التكر» فإنا أعلم أن ليلة القدر مغلقة فى وجوه أصدقائك

ولكن عندما تصل هذه الأجهزة سأتحول إلى قارئ وأتفرغ للتفكير المطبوع .

. . . أما الآن وإلى أن يصل هذا الجهاز فسأظل أهرش في عيني وفي أذني وأمر يدي على وجهي تماماً كما تمر على وجه الراديو تضبط الموجات . . فلا أسمع إلا الصغير وإلا الوش وسأظل أعصر الليمونة الخافتة فتسقط منها مثل هذه البذور التي قرأتها الآن !

... كن عادلاً ، إن استطعت !

مع آخرين استمعت إلى هذه القصة ، وحولى وحولهم كل شيء ملون . الأضواء والفساتين والعيون والأكواب والعواطف وحتى الدموع . وقال بعضنا : مظلومة ! وقال بعضنا : بل زوجها هو المظلوم !

لماذا دعيت مع آخرين ؟ لم أعرف ، ولم أفهم .

ولكن بدأت السيدة قصتها مباشرة . بدأت فاعتدلت في مقعد عريض وثير غطت جانباً منه والجانب الآخر احتله فستانها الحريري وحقيبتها وعلبة سجائر ركعت أمام ولاعة ذهبية .

وتقاربت الأكواب وتلامست ورنّت الحروف الأولى من : في صحتك .

وقبل أن تتزوج هذا الرجل . لم تكن تتصور كيف تبدأ العلاقة بين رجل وامرأة .. إنها تريد شيئاً واحداً ، هو أن ينقذها رجل شهم . رجل فارس . ستحبه . ستعبده ستكون خادماً له . جورباً في رجله منديلاً في جيبه . وسادة تحت رأسه . وامتدت يد إليها . لم تنظر إلى اليد . لم تعرف طبيعتها . لا قوتها ولا ضعفها . إن فرحة النجاة قد أذهلتها . فتعلقت باليد . وخرجت وعانقت صاحبها . وانحنى على يده تقبلها . وتضع خاتمين واحداً في يده وواحداً في يدها . . هي التي . . فعلت وليس هو .

إنها غنية والرجولة لا تقدر بثمن .

ولم يطلب منها أن تعطيه كل ما تملك من بيوت وأرض . . ولو طلب لفعلت . .

ولكنه لم يطلب . لو طلب إليها بعد شهر واحد من الزواج أن تأذن له بالزواج من امرأة أخرى لوافقت . ولم يطلب منها إجازة ليستريح في مكان بعيد . لا بعد شهر ولا بعد سنة . . إنها شابة في الثانية والعشرين وهو شاب في السابعة والعشرين ، إنها بلا تجارب وهو أيضاً بلا تجارب . لقد تعلمت القراءة وكتابة القصة والتردد على دور السينما ، والاستماع ساعات إلى الموسيقى والبكاء ساعات عند النافذة وفي التليفون . تعلمت هذا كله من أجله وبسببه .

وسؤالها الذي تكرره فتقف له الأكواب في أيدينا : ماذا تستطيع أن تفعله فتاة شابة حساسة مثقفة مع رجل تحبه : لا يقرأ ولا يكتب ولا يجد متعة في أى شيء ولا يجلس في البيت ولا يسمح لي بالخروج أو بزيارة أحد ولا يعطيني حق الحياة الإنسانية ! إننى مع الناس ولست من الناس . مع الأحياء ولست من الأحياء ؟

وتبكي ، وتتلون دموعها من وجنتيها وشفتيها ، وفستانها . . إن جسمها وبيتها يروى قصة أخرى ، لا تعرف الدموع ولا الصراخ . . وإنما تعرف الموسيقى والأحلام وتعود تروى قصتها فوق . فوق كتفها فتسحب هي العيون من جسمها إلى رأسها وتسمع منها : ما فائدة البكاء ؟ أنا أعرف أنه لا فائدة . . تماماً كالفيلسوف اليوناني الذي سأله : لماذا تبكي على

ولذلك . مع أن البكاء لا يفيد ؟ فأجاب : لهذا بكيت ! وأنا لهذا أبكى .
ولأن الدموع لا تفيد فأنا أبكى على دموعى الضائعة .

وزوجها لا عيب فيه . . شاب وسيم فيه رجولة وغنى أيضاً ويحبها ،
ولكن حبه على طريقته هو : إنه يحبها ولهذا تزوجها ، يحبها ولهذا لا يسمح
لها بالخروج من البيت . ولا زيارة أحد ولا أن يزورها أحد . إنه يحبها
ويخاف عليها . ولذلك حبسها . . وهو يحبها ولذلك لا يجب أن تناقشه أو
تحاسبه . أو تجلس معه على مائدة أو تتقدمه إذا سارت في الطريق ،
ولا بد أن تنجب . . أولاداً . والذي يراها لا يصدق أنها تزوجت أو
أنجبت أولاداً . بل يقول : يجب أن تتزوج حالا وأن يخطفها أى إنسان
ويهرب بها إلى مكان بعيد . . وهذه هى أصابعها نخلت من الخواتم .
ومن أى أثر لدبلة خطوبة أو زواج .

وحاولت هى أن تقنع زوجها بأن يعاملها معاملة أخرى . فالحب ليس
حالة نفسية يحتفظ بها الرجل في دمه . كما يحتفظ بمصحف في جيبه . .
ولكن الحب كلام وأفعال وخروج وسهر وضحك وحنان وحناق وتهديد
بالاتصال وتهديد بالطلاق وقسوة ورقة . ويد ترتفع لتضرب فإذا هى
تلين لتعانق . .

وكان رد الزوج أن هذا كلام قصص وأفلام . .
ولكن القصص لها أصل . . والأفلام واقعية .
وكان الجواب : أنا كده .

طلبت إليه أن يعرف أية فتاة أخرى . . وأن يحبها . . وحينئذ يعرف

ماذا تقوله المرأة إذا أحبت . . ويعرف ماذا يحس به عندما يحب . .
كيف يشعر بالزمان والمكان .

وكان الجواب أنت لا تريدني ، ولكني أريدك ، وسأبقىك هنا ،
ولن تخرجي من هذا البيت إلا ميتة .

وتقول إنني أحبه ، وإنما أريد أن أحرك عواطفك عواطفه ، والغيرة
كاللص إذا دخل البيت أحس صاحب البيت بالخطر ، وبأن أمواله
مهددة ، وأن حياته مهددة وزوجته وأولاده كل هؤلاء سيضيعون منه . .
وأنا أريد أن أجعلك تهتز ، أن أجعلك تخاف ، أن أهزك لتتحرك عقارب
الغيره فيك . .

وكان يضحك . . وكانت هي التي تتحرك وتهتز وتغار عندما
تتصور أنه سيحب امرأة أخرى وأنه سيفكر في الزواج منها . . ثم تبكي
وتنزل دموعها . وتشهق أيدينا وتتدافع إلى التقاط دموعها . . وكلما حاولنا
أن نعلق على الدموع ونتجه إلى القصة الأخرى التي يرويها ثوبها وعطرها
ودخانها صددتنا دموعها وأعادتنا إلى مكاننا من القصة فوق حيث تخرج
من شفتيها . .

وبدأت تسأل زوجها : ماذا تفعل لو وجدتني يوماً وقد تعلق
بذراع رجل .

وقال زوجها : ماذا تقولين ؟ أليس هذا عيباً . . ؟

فتقول له : افرض هذا .

فيقول : مستحيل !

وتعود تقول : ووجدته يقبلنى .

ولا يصدق الزوج أن هذا هو كلام امرأته ، وينهض واقفاً أنت مجنونة !
وتمضى قائلة : ووجدته يعانقنى عناقاً طويلاً . . وفى يده
مسدس يهدد كل من يقترب منى ويلقى بدبلة الزواج فى الأرض . .
تقول هذا وهى تتراخى وتترامى فى مقعدها وتحس بالسعادة وهى
تتطلع إلى زوجها وقد غضب . إنها لم تره أبداً بغضب ، وقد احمر
وجهه ، ولم تر هذا اللون أبداً . . وقد شتمها ، وهى لم تسمع إلا أدبه
والإحياء الشديد إنها تريده هكذا دائماً . . هكذا دائماً .

وكان لها ابن عم وخرجت معه . وتعمدت أن تسير به أمام المقهى الذى
يجلس عليه الزوج وكانت ترتعد وهى تفعل ذلك . . كل شئ فيها
يرتعد ، ولم يكن زوجها هناك . وانتظرت أن يناقشها أن يحاسبها . . ولكن
أحداً من أصدقائه لم يخبره . . ورآها زوجها مرة وسكت . .

ومع رجل آخر وثالث . . كان لعباً أول الأمر . وكان نزهة بعد ذلك
وكان غراماً وهياماً . . وطلبت إلى زوجها أن يطلقها . . إنها تحبه ولكن
الرجل لا يشعر بها ولا يدري ماذا يجب أن يفعله إنسان نحو المرأة التى
يحبها أو التى تحبه . . إنه رجل بلا خيال ولا شاعرية .

وحدث بعد ذلك شئ نستطيع أن نتنبأ به من ارتعاش جسمها كله
ومن دموعها ومن السيجارة التى سقطت على البساط . فتراجعت عليها
الأيدي تنقذها . وتنقذ البساط منها . . وانتشلنا السيجارة وكانت ما تزال
مشتعلة ولكن عندما اصطدمت بالمنضدة تساقطت نيرانها وانطفأت . .

وظلت السيدة مشتعلة بالذكريات والحزن والأسى أما الذى حدث فهو أن زوجها ذهب إلى عزبته . وهناك انتحر وانطفأ . .

وكان ذلك منذ ستة شهور . . وضمير الزوجة الذى استقر فى هذا الجسم الحميل الذى لا يستقر فى هذا الثوب ، أو فى هذا البيت . ضميرها يعذبها . إنها تحس أنها قتلت الزوج مع أنها لم تقصد إلا إشاعة الحياة فيه من أجلها ومن أجله ومن أجل أولادهما . والمطلوب منا أن نقول إنها بريئة من دم هذا الرجل الذى مات وأوصى لها بكل ما يملك . فزاد فى عذابها وألمها

وحكمت المحكمة ببراءة المتهم وذلك بعد أن جلست للمداولة مع المتهم وأكلت فى بيتها عيشاً وملحاً وملأت منها العين والفم والأنف والقلب . فما رأى الذين لم يروها ولم يجلسوا إليها ولم تمزقهم دموعها . إن هذا البيت الحميل يتحدى العدالة . ١١

عم سيد !

فى بيتنا . وتحت سلمنا . عجوز يقاوم جاذبية الأرض بعضا قديمة .
اسمه عم سيد لقد ارتدى كل ملابسه . واف حوطا حزاماً من الجلد .
وعلى رأسه وضع طرطوراً ووقف مرتجفاً يقاوم البرد . إنه يشبه « بابا نويل »
ولكن بعد أن وزع هداياه ونزع ملابسه وأعطاهما للأطفال فى كل مكان
ثم نسج من الطين ملابسه وذراعيه ورجليه .. ويشبهه بعد أن هجم عليه
ألف اللصوص فسرقوا بصره وسمعته وحياته .. وقطعوا صلته بكل الناس ..
ولكن عم سيد لا يزال يقاوم اللصوص المجهولين . يقاومهم بصفائح
كالمتاريس مملوءة بالتراب . وفى التراب قطع معدنية تلمع . إنها كتؤزّه .
فى كل ليلة يخرجها ويمسحها ويدفنها من جديد . يدفن نقوداً جديدة
رنانة .. كأنه يكرر عملية الواد القديمة أيام كان الناس يدفنون الفتيات
أحياء .. أو لعل عم سيد يهون على نفسه مشكلة الموت والدفن . فهو
يمثل عملية الدفن تحت التراب كل ليلة . ثم يقف بعصاه يدفع عن
نفسه الكلاب ، فهو يتوهمها أرواحاً شريرة . وكثيراً ما اختلط عليه أمر
الكلاب والقطط ونحن . وراح يضربنا ونحن نعذره لأنه لا يحسن القراءة
بيده . إنه لم يتعلمها إلا أخيراً .. !
فهو لا يقرأنا بأصابعه وإنما بعصاه . فهو يمر بها على الحائط وعلى
الأرض وعلينا ..

وفي الليل .. في كل ليلة يقفل باب غرفته .. ويتلمس ثوبه الحديد .
 الذي كان جديداً والذي لا يلبسه إلا في الأعياد . وحذاءه الأحمر سابقاً .
 وطاقيته الشبيكة . وزجاجة فيها عطر لم يشمه أحد . ومراة صغيرة تراه
 ولا يراها . وفي حضور هذه الكتوز ينام بعد أن استراح إلى أن اللصوص
 لم يحملوها معهم .. إنه يفعل تماماً ما كان يفعله القراعنة من ألوف السنين ..
 لقد كانوا يدفنون كتوزهم معهم في انتظار الرحلة إلى الشاطئ الثاني
 وكذلك عم سيد .. إنه ينتظر رجلاً .. إنه ينتظر « بابا نويل » آخر ..
 يأخذ ولا يعطى ، يأخذ الطفل وأباه .. الشقى السعيد .. إنه ينتظر هذا
 المحصل .. محصل النور والماء والهواء .. الذي يحصلنا ويقبضنا وهو يقرأ
 في كشف لا نراه ولا نعرفه .. إنه ينقلنا من هنا إلى هناك ..
 لقد أخذ من عم سيد الكثير .. ولم يترك منه إلا الحروف الأولى ..
 تركه عملة ممسوحة سيلقى بها في « حصالة » لا ترد أحداً وتتسع لكل
 أحد .. فوق السلم أو تحت السلم !

حفنة تراب

فى بورسعيد قابلت كثيراً من الناس جاءوا من الشمال والجنوب . .
كلهم ليروا ماذا فعل العدوان بهذه المدينة الآمنة . إن كل شىء هادئ
فيها . الناس والحياة ، والأتقاض ترتفع من الشوارع ، ودخان البارود
قد طغت عليه رائحة البحر ، والناس يتزلون من القطار يبحثون عن تمثال
دى لسبس . . لقد تحطم التمثال وسقط فوق زورق صغير وانكفاً على
وجهه . . إنه غارق على سطح الماء . وتمثال الجندي المجهول قد انفصل
حصانه . . وألقى أحدهما فى الشارع وامتطاه الناس والتقطت لهم صور ،
والآخر فى منزله صغير . .

والشوارع امتلأت بالبيريئات الزرقاء يتحرك تحتها جنود وضباط .
إنهم الكنديون أبناء عم الإنجليز والأمريكين ليسوا صغار السن كالدمركيين
والسويديين . بل معظمهم على أعتاب الأربعين والخمسين . وهم لا
يتحدثون إلى أحد من الناس . ولكنهم يداعبون الباعة المتجولين .
وكل شىء سيتغير فى هذه المدينة . فالشوارع تنظفها السيارات
والفتوس تعمل فى إزالة الأتقاض . ولن يكون هناك خراب ولا دمار .
سيختفى التراب الذى أغمض العيون وسد النفوس . تماماً كما اختفى من
المدن الألمانية . . لقد رأيت ميونخ ودسلدورف ورأيت هانوفر وهمبورج ، كلها

صربت بمئات الألوف من القنابل . ولكن اذهب إليها الآن وأرني أثراً واحداً لقنبلة أو طوربيد . . لا شيء ، قامت البيوت . أو على الأصح قام الناس فقامت البيوت !

وستمتلئ محلات بورسعيد بالزبائن ، والشوارع بالسائحين من كل بلد في أوروبا وآسيا . . ولن تقف طويلاً زوارق الصيادين . ولن يطول تثاؤب عمال الأرصفة ، سيكون هناك بحر — كما يقول أبناء بورسعيد . وهم يعنون بذلك الحركة والتجارة ، فإذا كانت هناك حركة وتجارة فهذا هو البحر . وإذا لم تكن هناك حركة فالبحر أرض يابسة . إذن فليس هناك بحر .

وكان الليل بارداً في بورسعيد . والبرودة تعلن حالة الطوارئ في كل الشوارع حتى البوليس الدولي قد توارى في البارات . إنهم وحدهم يشربون ويضحكون ولا توجد بينهم ولا معهم امرأة واحدة . والتعليمات صريحة بأن يلتزموا الأدب والوقار حتى إذا شربوا . . إلا إذا ذهبوا إلى الصحراء فهم أحرار يفعلوا ما يريدون . وقد سألت ضابطاً دولياً رأيته يتطلع إلى السماء : كيف الحال ؟ فأجاب : لا شيء هناك . وإنما نتظر سقوط الجليد !

وتركني ومضى يضحك واحتفظ بالمعنى في بطنه أو ربما كان كلاماً بلا معنى أو هي إجابة تقليدية أو أنه كلام دولي !
ودخلت أحد الكباريات . . وقد امتلأ بالبوليس وعيونهم تتجه إلى من يدخل من المدنيين ولكنهم حريصون على أن يضيقوا اتصالهم بالناس

إلى الحد الأدنى . . . وفي هذا المكان منذ ستين ظهرت فتاة يونانية كانت جميلة الصوت والشكل . وكانت طيبة القلب . وبهذه الطيبة خربت بيت أعز أصدقائي . . . إنني أستطيع أن أروي قصته هنا وأنا آمن . فهو غاضب مني ، وقد أقسم ألا يقرأ شيئاً مما أكتب وخسرت قارئاً مستنيراً صادق الإدراك والنقد . . . كانت تربطه بهذه المطربة اليونانية واسمها « ميراندا » صلة الحب العنيف . وكان يسافر يوماً بعد يوم من القاهرة إلى بورسعيد ليجلس إليها حتى الصباح ويعود إلى مصر . . . ولم أكن أعرف هذه العلاقة . . .

وفي يوم تلقيت دعوة من زوجته لحضور عيد ميلادها . وذهبت ولم أفطن إلى أن مجيئي إلى بيت هذا الصديق كان مفاجأة كبرى له . وبعد وصولي بدقائق استدرجتني الزوجة إلى البلكونة وفتحت مظروفاً كبيراً وسألتنى إن كنت أعرف واحدة من هؤلاء . . . والمظروف مليء بصور الفتيات . ولم أكن أعرف . . . إلا « ميراندا » هذه ومددت يدي إليها . وسقطت الصور من يدي الزوجة . بل وسقطت الزوجة من حياة هذا الرجل وانفصلت عنه حتى هذا اليوم .

وكان الزوج قد أكد لها أنه لا يعرف صاحبة هذه الصورة ولا يدري من الذي دسها في جيبه ، وقاطع الزوج أصدقاءه القدماء وصديقاته القديمات . وهو اليوم متصوف لا يقرأ إلا القرآن وإلا الأحاديث النبوية . . . ويعيش في أرضه التي يملكها بعيداً عن كل إنسان وكل زوجة وكل ميراندا .

إن هذا الصديق كأنه مات . . يكفي أنه قرر ألا يكون له مستقبل . .
والإنسان الحي هو الذي له مستقبل، والميت هو الذي لا مستقبل له .
ونحن وبور سعيد أحياء . سيكون لنا شأن . وسنعيش وننهض لأن
الحياة تستحق أن نعيشها وأن نمدها بنا وبالناس بعدنا . وما دام هناك بحر
ستكون حياة . ليس هذا كل ما أحسسته في بور سعيد وإنما هذه حفنة من
تراب الأرض التي تلقت عنا الفرع والنار والدمار . وبقيت وستبقى وتعيش
بنا وبعدنا . .

وبكى الطفل !

كأن في داخلي طفلاً صغيراً . . لم يكبر ولا يريد أن يكبر . إنه يمد يده إلى الناس لكي يعطوه بعض « المignon » أو يقرصوه في أذنه قائلين : شاطر . . وإلا لماذا أتحدث عن ذهابي لنادي التوفيقية وعن أنني ألعب التنس . . وأن المضرب الذي ألعب به من ماركة دنلوب وأن الكور أيضاً من هذه الماركة . ولماذا أستدرج أصدقائي لكي يتفرجوا على . مع أنني أكره أن يرقبني أحد وأنا ألعب . وأنا أتساقط في خشونة على الأرض . وأمامي ممن خفيف رشيق الحركة . . على كل حال لست أنا الذي أفعل ذلك . وإنما هو الطفل المحروم المسكين الذي في داخلي . . الذي لم يسمع كلمة حلوة طول طفولته وتلمذته . أيام كان تربيته الأول في كل مراحل التعليم حتى الليسانس . . وأنا أرى ذلك وأسمع وأشفق عليه وأتحول إلى أم . وإذا بي أحمل الطفل على صدري وأهدده وأقول له : سد ياروحى سد . . بابا زمانه جاى . .

وكنت أسحب السنة أصدقائي ليقولوا لي : والله أنت تلعب جيداً . . كيف تفوقت هكذا . .

وأنا أعلم أن هذا غير صحيح وأصدق كلامهم . وأقول لنفسى : لم يعد الطفل في الداخل لقد أصبح في الخارج أيضاً . . واشتريت كثيراً من الكتب عن أبطال التنس . وقرأت عن اللاعب

العالمى « هود » الذى لا ينام إلا إذا كانت الكرة والمضرب فى حضنه . . . وقرأت عن لاعبة ديمقراطية كانت تحلم بأنها تلعب وهى نائمة فكانت تصحو من النوم وتذهب إلى صديقة لها وتلعبان معاً . . . وقد تكرر منها ذلك حتى منعها البوليس من إقلاق راحة النائمى . . .

وجمعت عدداً من المقالات عن الأدباء والشعراء والفلاسفة الذين كانوا يحبون الرياضة ويفضلونها على القراءة والكتابة . . . وقررت أن أولف كتاباً عن « أدب الملاعب » . . . وليس مهماً أن يصدر لى أو لغيرى وإنما المهم أن يصدر والسلام . . . واكتشفت أننى غير مقتنع بهذا اللعب وإضاعة الوقت فيه . وأن كل الكتب التى اشتريتها والمقالات التى جمعتها ليست إلا محاولة لتبرير موقف لا يقنعنى . . . ومع ذلك لم أتوقف لا عن شراء الكتب ولا عن جمع المقالات ولا عن اللعب . . .

إلى أن كان أمس . . .

ذهبت لأشهد مباريات فى كرة التنس ، إنه شىء غريب عن الذى أعرفه . . . فلا اللاعبون يمسكون المضارب كما أفعل . ولا الكرة تتحرك معهم كما تتحرك معى . . . إنها فى أيديهم طائرة خفيفة خاطفة . . . وفى يدي كأنها طوب أو حجر . . . ولأنها ثقيلة . . . وحركاتهم أرق وأكثر نعومة . . . أما حركاتى فهى ديب على الأرض كأننى أحاول رصفها من جديد أو أحاول مسح العلامات البيضاء منها .

ثم رأيت اثنين من اللاعبين . وعرفت فيما بعد أنهما من أشهر لاعبي مصر . وهذا واضح جداً . وعرفت الفرق الذى بينى وبينهما . . .

فكل منهما يلعب وكأنه يطارد فراشة بيضاء .. فيرفع يده إلى أعلى .. إنه « يهوشها » فقط ولكنه لا يضربها .. لأنه يخاف أن تموت .. أو كان الواحد منهما لا يضرب الكرة وإنما هي التي ترتدى على مضربه ..

أما أنا فأشبهه عسكري البوليس والكرة تشبه البائع المتجول .. البائع « السريح » وأنا أضربه على قفاه وأقول : يا لله قدامى على القسم ..

وأحسست بشيء كثير جداً من اليأس والقرف .. وشعرت كأنني بائع متجول وأن يداً غليظة تهبط على قفائي وتقول : قدامى على البيت !

وقمت .. ولم أذهب إلى النادي بعد ذلك .

... وبكى الطفل !

إنه عقلي الصغير !

من الناحية الأخرى جاءتني ابتسامة عابرة . . ولم أرد عليها . . فأنا لا أعرف إن كانت لي أو لغيري ، ولم ألتفت ورائي ، لأرى من هو صاحبها . . . ووقعت الابتسامة على وجهي وكأنها حمامة بيضاء فوق مدخنة أحد المخابر . . وعادت الحمامة إلى حيث كانت من الجانب الآخر من « نادي الجزيرة » ولكنني نظرت إلى هذه الناحية . . وفي مرارة عشرين فنجاناً من البن ، وجفاف سهر الليالي الطويلة بلا نوم ، وقرف حبوب كثيرة أتعاطاها ضد السممة ، حاولت أن أبتسم ولكن جاء ردي متأخراً . . .

وحاولت أن أداري خجلي . . . أو برودي . . فرحت أتطلع في الوجوه . . . وكانت عيناى تتعثر بين المقاعد والمناضد . . . وتتسبل بين الناس ، وتترحلق على الفساتين المشدودة بالصحة أو بالترزي . . . وفي جانب من النادي أحسست فجأة أنني أقرأ في كتاب قديم من القرن الثامن عشر . . . فالوجه الذي أراه هناك . . . معروف في تاريخ الأدب الفرنسي . . . من أيام الحب والجمال والفروسية . . . وأنا أراهن أنها تنتظر فارسها الذي سيحجىء ومعه سيفه . . . وتحت حصانه الأبيض ، ووراءه عائلته وقصوره . . . وسيخطفها إلى مكان بعيد . . . وفعلما جاء الفارس

بلا حصان أبيض ، فقد كان هو الحصان الأبيض ... إنه صحة بلا رقة ،
وقوام بلا خيال .. ونهضت هي كعصفورة ووقفت على ذراعه ... وأطلقت
حمامة بيضاء أخرى ناحيتي ... فأطلقت أنا سرباً من الحمام الأبيض
ومعه بعض الصقور والنسور ، ووضعته في رجل كل حمامة رسالة
صغيرة ...

وأغلت الكتاب الذي كنت ألقبه في خيالي وأصبح كل شيء أمامي
أبيض اللون ... كصفحات سقطت منها الصور ... أو ألواح زجاجية
انعكست عليها الشمس ...

وكانت هذه الابتسامة فيما مضى تديبني ، تجعلني أنزل من المقعد
إلى الأرض وأركع وأشكر الله الذي وهبنا الشيء الجميل ووهبنا الإحساس
به ... فنحن لا نرى الله ، ولكن نرى ما صنعه يده ... ونحن في
سعادتنا نقبل يديه ...

وفي خيالي ... ركعت وسجدت وشكرت الله ... فما تزال الابتسامة
تهزني ... وتنقلني من عصر إلى عصر ... إن قلبي ما يزال صغيراً ...
وعندما رأيت السمراء تصافح رجلاً يجلس ورأى ... وتجلس إليه
وتعجب عليه أنه كان مشغولاً عن ابتسامتها وإشارتها ، حزنت وحزنت
وحزنت على أن عقلي ما يزال صغيراً !

بمخلع الضروس !

ليس هذا الموضوع شخصياً . ولكنه موضوع عام . وأنا مضطر
أن أذكر هنا بعض الأسماء . . فكل اسم كأنه قسم ، كأنه « حلفان »
بالله العظيم أن ما أقوله صحيح !

أنا الآن في عيادة الدكتور ع . . . المصباح المضيء يدخل في
أذني وفي أنفي وفي حلقى . والدكتور يقول لى : كل شئ سليم .
وأحسست بكراهية للغة العربية وللمصباح !

هذا شعورى . . .

وانتقلت إلى مستشفى الدكتور . . . أنزع ملابسى وأتمد على منضدة
طويلة ويجوارها مناخذ صغيرة . . ويقف إلى يمينى الدكتور و . . .
طبيب الأسنان : أمامة أجهزة وأدوات شكلها عجيب ومخيف . مسامير
وإبر وأمشاط وكلبشات ملتوية كأنها خرجت من النار تواء . وأنا فى
دهشة وأسأل نفسى والبنج الكامل الشامل يتمشى من ذراعى إلى كل
جسمى : كل هذه الأدوات من أجل ثلاثة ضروس . . لا بد أنه
سيخلع . .

ولم أكمل هذه العبارة لأننى لم أشعر بشئ بعد ذلك . .
'وبعد دقائق لا أعرف كم عددها بدأت أفيق ، وهنا يبدأ الموضوع
الذى أريد أن أتكلم فيه — بدأ الضباب الكثيف يتزحزح قليلا . المصباح

الذى فى السقف يشبه عيناً حمراء . . كل شىء حولى كأنه ماء أو أمواج
وكأننى سمكه أتلقى . . أو كأننى فى قاع البحر . . لا أشعر برأسى
إطلاقاً . ولا أعرف كيف أرى الأشياء ، ولا أدرى بأى شىء أراها وأرانى
. وأحس كأن النصف العلوى لرأسى فقط هو الحى ، أما النصف
الآخر فلا وجود له . . . ميت . . أو أن عنقى يبدأ من تحت عيني
مباشرة وأن تياراً من الهواء يلتف حول عنقى . . .

أرجوك أن تنتظر بضعة سطور حتى أوضح لك ما أريد أن أقول :
وبعد ساعتين . . . أصف لك شعورى . . بدأت أشعر بضمى وبلسانى
وأسنانى . . وأشعر برأسى كله . ولو كنت رساماً وأمسكت قلماً وحاولت
أن أصور نفسى . . . لكأنت الصورة هكذا : بقعة سوداء على هيئة
نمى بطيخ . هذا النمى هو رأسى . وسوداء لأننى لا أرى رأسى ، ولا
أجد يرى رأسه وبعد ذلك أرسم أنا ييب ملتبة فيها ماء يغلى . . هذا بالضبط
شعورى . . ثم هنا شىء يلتف حول خلقى لا أعرف كيف شكله ، لا
أراه ولكن أحسه . . أنا أعلم أنها عروق تنبض . . ولكن أحس بها كأنها
الأفاعى التى تهرب من النار فى خلقى . . ولو رأيت هذه الصور ورأيت
الناس يسخرون منها ، فسأسخر أنا منهم . فقد كان هذا شعورى بالضبط .
مواسير مياه أو مواسير هواء ساخنة تنفذ من رأسى إلى خلقى ومسامير
ملتبة تدقها شواكيش لا أراها . .

وهذه اللوحات غريبة لأننا تعودنا على اللوحات التى يرسمها الإنسان
وهو فى كامل وعيه ، التى لا يرسمها وهو دائخ أو سكران أو يحلم أو وهو

ما يزال نعيان . . . أو هو يعاني آلاماً حقيقية ... وشيء آخر وهو أننا
تعودنا أن نرسم « رجلا » يبكي وأن نرسم « رجلا » ينخلع أسنانه . . . أو
« امرأة » مغمى عليها ... ولكننا لم نتعود أن نرسم « البكاء » نفسه ... أن نرسم
« الألم » ... أن نرسم « الإغماء » ... هذه هي الصعوبة ... فاللوحة التي أرسمها
لنفسى وأنا أتألم ، ليست هي وجهى ولا ملامحى ولكنها شعورى ... شعورى
بالألم والعذاب والصداع واحتباس الدمع فى عيني . . ونجلى من الطبيب
والمرضات وحرصى على أن أخفى كل متاعبى عن أمى ... فأنا أرسم
المعنى ، ولا أرسم الشخص ...

ولهذا كانت لوحات الفنانين السرياليين غير مفهومة أو مستحيلة
الفهم ... لأنها لوحات ترسم المعانى المجردة من اللحم والدم المجردة من
الأشخاص ...

ولكننى أستطيع أن أقول إننى فهمت بعض هذه اللوحات ولكن بعد
إيه ؟ . بعد نخلع الضرس . . بل الثلاثة ضروس !

.. عارف أنا مين ؟

... سيدة وزوجها وأولادها . أمامهم منضدة عليها أكواب فقط تحت المنضدة سلة لها كرش كأنها قنبلة ... كلما اقترب منها الأطفال ، ضربتهم الأم وغمز لها الأب قائلاً : وبعدين ؟ السيدة فيها شبه كبير من ماري منيب ، المكان ليس مسرح الريحاني . إنه جزيرة الشاي . الوقت هو ساعة الأذان . الأسود تزأر . البط والإوز يدور حولنا كأفكار حائرة في رأس لم يتخذ قراراً . كل شيء هادئ . وأخيراً ارتفع صوت اتجهت إليه العيون والآذان ...

السيدة : أنت مش عارف أنا مين ؟

الحرسون : مين يعنى إيه ؟ وأنا مالي إيه اللي مش عارف أنا مين ... لا ما اعرفش انت مين يا ست هانم ...

الهانم : اسكت أحسن لك . انت مش عارف أنا مين ...

الحرسون : لا يهمنى أبداً ... الأضول لازم تمشي يا ست هانم ... ممنوع ... الأكل هنا ممنوع ... إذا أردت أن تأكلي فأنا نخدامك ولكن أى أكل من البيت ممنوع ...

الهانم : اسكت أحسن أقوم أكسر دماغك !

الحرسون : عيب ... أنا قلت ممنوع يعنى ممنوع .

أنا (بيني وبين نفسي) : انت مين يعنى إيه ... طبعاً كلنا نعرف

أنت مين! الشوال الذى تلبسينه من تفصيل منجد بلدى ... بشرة حضرتك تحتاج إلى مبيض للنحاس ... الأساور التى فى يديك خردة عليها صدأ أفكارك . وأنت لو كنت شيئاً له قيمة ، جلست فى مكان آخر ... فى هيلتون مثلاً . أو كان فى استطاعتك أن تبنى قصرًا وتجعلى فى القصر بحيرة وفيها جزيرة وفى هذه الجزيرة يقف عشرون جرسوناً من خريجي الجامعة .. وفى استطاعتك أن تصبى على رؤوسهم الشمع وأن توقدى هذا الشمع لكى يضىء الطريق للذباب لكى يدخل عيون أبنائك ! طبعاً أنا أعرفك ... أنت فشارة ... أنت تافهة ... مين يعنى إيه ؟ من هو زوجك ؟ الأصول يعنى الأصول !

وخشيت أن تسمع هذه السيدة أفكارى فوضعت يدي على فمى ..
وتنحنت كأنى أبلغ كلامى !

الجرسون : من فضلك ممنوع . وإلا .
الهانم : وإلا إيه يا روى ... تهددنى . تهددنى بإيه ... امش من هنا ... انت فاكر أن أولادى عاشوا على الأرصفة ... أولادى عاشوا على الغالى ... شوف نفسك أنت ؟ (وتنظر إليه من فوق لتحت) .
الجرسون : على الغالى على الرخيص ... ممنوع ... الآن لا أحد يعيش على الأرصفة ... ثم إننى رجل محترم ... إننى أعمل فى هذه الخدمة من ٣٠ عاماً ولم أسمع شيئاً كهذا ...

الهانم : مش كل الطير يتاكل لحمه .
الجرسون : مالى أنا ومال الطير اللى يتاكل لحمه واللى ما يتكلش ...

هذا ممنوع يا هانم ...

أنا (بينى وبين نفسي مع الأسف) : أتمنى أن أكون فى ملابس هذا الجرسون لألقنه كيف يرد على هذه السيدة الباردة ... وكيف يتمسك بالأصول ... كيف يطردها بقوتنا — نحن الزبائن ... نحن الأغلبية الساحقة التى جاءت تلتقط هواء بكرأ لم تتنفسه حمير وقرود وأسود هذه الحديقة ... وكيف يلتقى بها فى البحيرة ... لقد حدث منذ أيام فى أحد مطاعم روما ... لقد كانت هناك سيدة سكرانة جداً ... فتعاون الجرسونات وألقوا بها فى الماء ... وهذه السيدة سكرانة بالغرور ... بالنفخة الكاذبة ... والله لقد كان الرجل هيلتون على حق عندما اختار جرسوناته من أحسن طبقات مجتمعا ... فلا يستطيع زبون أن يقول لجرسون : أنت مش عارف أنا مين ؟ لأن الزبون يعلم من هو هذا الجرسون .

(... المنظر الآن تغير ... السيدة تجلس وزوجها وأولادها فى هدوء ... كأنها على المسرح وكأنه لا يوجد جمهور يتفرج عليها فى هدوء ... أما الجرسون فهو كالممثل الذى أخطأ طريقه إلى الكواليس فشى من فوق خشبة المسرح ، واختفى فى كسوف ... انفتحت الستائر ظهرت شظايا القنبلة ... إنها سندوتشات ضخمة ... وبعد لحظة ظهر الجرسون ومعه دورق ماء ... ووقفت لكى أراه وهو يتزل فوق رأس السيدة ولكن مع الأسف وجدته قد استقر أمامها ... ولم أستطع البتة لحظة وقابلنى الجرسون وأنا أنصرف ...)

الجرسون : الله ! على فين ؟

أنا : هنا رائحة زفارة

الجرسون : الرائحة موجودة كل يوم . .

أنا : أبوه صحيح . . ولكنها زادت النهاردة .. وعاوز أشوف الحمار

الى الصحف كتبت عليه إنه ولد أخيراً . . . ثم إنك لا تعرف أنا مين ؟

الجرسون : نعم ؟ !

أنا : أنا اللي احترمتك لمدة دقيقة ورأيتك بطلا لأنك تمسكت

بالأصول . . . أما الآن . . . فروح شوف الهانم ابنها بيعيط . . . يمكن

عاوزاك تشيله شوية ! . مفيش فايده !

الجرسون : نعم ؟

أنا : هذه هي أحسن كلمة . . . قلها . . قلها . . طول عمرك !

الجرسون : نعم ! !

أنا : أنت مش عارف أنت مين ! .

صراع .. وصداع

منذ أيام أحسست أن رأسي كالبيضة في داخلها كتكوت يريد أن يرى النور .. إنه ينقرها من الداخل ... منقاره قوى ... ولكن جدار البيضة قوى ... أقوى من منقاره ... ويبدو أن هذا الكتكوت يريد أن يخرج قبل الأوان ... وككل عملية ولادة تصاحبها دموع . لا دموع المولود ولكن دموع البيضة وصراخها ...

وهذا الكتكوت من المؤمنين بالحكمة التي تقول : من سار على الدرب وصل والذي يدمن الدق على الأبواب لا يبد أن تنفتح له .. فهو يدق رأسي في مكان واحد ...

لم أفهم من سبب هذا الصداع الشديد . رحت أقلب في الكتب .. فكتاب يقول لي إن سبب الصداع الشديد هو : العين أو المعدة أو الكلى أو الكبد أو الجيوب الأنفية ...

وكتاب يقول : إن الصداع له أسباب نفسية مثل الانفعالات الشديدة كالخوف والقلق .

وكتاب ثالث يقول : إن الصداع النصفي ورأى ... وإن المصاب بهذا الصداع يجب أن يفتش بين آبائه وأجداده عن أصل هذا الصداع .. وهذا الصداع النصفي لا يصيب الإنسان بعد الستين أبداً .

ولكن إذا أصابه قبل الستين فماذا يعمل ؟

الكتب كلها التزمت الصمت . . كأننى طائفة معلقة فى الهواء بدأت تستغيث بأقرب المطارات منها . . ولكن مطاراً واحداً لا يرد .
وقلبت فى كتاب آخر وأنا أبتسم لصفحاته التى امتلأت بعبارات تقول : الصداع توأم الذكاء الشديد (هه !) وعبارة أخرى تقول لك :
الصداع هو الثمن الذى دفعه أصحاب الطموح (يعنى !)

وقرأت أن أعراض الصداع النصفى . أى الذى يصيب نصف الرأس تظهر بأن يسبقها أولاً إنذار ، فأنت ترى بريقاً فى العين . . أقصد شراً ينطلق منها أمامك . . . هذا الشرر هو بشير بأن الصداع فى الطريق . .
هذه الشرارات تشبه تماماً النقاط الضوئية التى تظهر على شاشة التليفزيون . .
واحدة واحدة وبسرعة هائلة ليبدأ البرنامج .

وبعد الشرارات التى تنطلق من أو أمام عينيك . . يبدأ صفير . .
وهذا الصفير يدل على حيويته ونشاطك . . تماماً كالصفير الذى ينطلق من إناء يغلى . . لكى تسارع برفع الغطاء عن الإناء أو إبعاده عن النار .
والمصيبة أن الذى يحاول رفع الغطاء . غطاء رأسى لست أنا ولكنه شىء فى داخل الرأس . . .

وهذا الصداع النصفى يدل على أن هناك اختلالاً فى توازن الجسم . .
القلويات أعلى من الحمضيات أو العكس . . وهذا الصداع يشبه « الطقطقة » التى تسمعها وأنت تمشى على أرض خشبية . . أو يشبه صوت الألواح الخشبية فى زورق يتأرجح يميناً وشمالاً . . والزورق يحاول

أن يحتفظ بتوازنه . . وجسمك هو الآخر يحاول أن يتوازن . . والصداع هو صدى التوازن !

وقرأت في كتاب « الوصفات البلدية » للدكتور جارفيز أن العلاج الوحيد للصداع هو أن تضع الخل في الماء وتشربه .. وبعض البدائيين كانوا يشمون بخار الماء والخل .

ولكن العلاج الناجح للصداع هو ملعقة من عسل النحل . . مرة أو مرتين في أى وقت . . فالعسل هو وحده الذى يهدئ الأعصاب ، فالجسم يمتصه بسرعة وينقله إلى الدم في نصف ساعة . .

وجربت العسل . . وقد أفادنى العسل فعلا . . ولكن المشكلة الآن أن الصداع الذى تجمع في جانب من رأسى قد تفرق على أسناني . . في كل صف منها صداع . . وقد اصطفت أسناني صفين . . كأنها أعضاء مجلس إدارة حول مائدة مستطيلة . . وكل واحد منها يطلب الكلمة . . كلها في وقت واحد . . وعندما لا تعطى له الكلمة يدق المائدة بيديه ! !

وحاولت إرهاب السادة أعضاء مجلس إدارة مخي وحياتي كلها بأن أصرخ وأنفخ وأوزع عليهم أقراص الأسبيرين والفيجانيين وطوفان المياه . . فتعالى الصرخات . .

ملحوظة : أحسن علاج في هذه الحالة هو أن تخلع أسنانك كلها . فمعظم سكان أمريكا لم طقم أسنان . . والسبب هو سوء الهضم . . هضم الأكل وهضم الكلام . . كالمنتشور أعلاه !

إنها محطة واحدة !

أحب السكن بجوار السكك الحديدية . . . حيث النار والبخار
والصفير والزعيق . . والوقوف على الرصيف في انتظار شيء ما . . والخوف
أن يفوتني شيء ما . . وشعوري الدائم بأنني على سفر . بأنني مسافر . .
بأنني أتخفز وأترقب وأتعب .

وكل البلاد التي سافرت إليها كنت أسكن فيها بالقرب من محطة
وكنت أتمنى لو أنني قمت من نومي فوجدت أن الفندق الذي أنزل فيه
قد سحبه أحد القطارات وانطلق به إلى نهاية العالم . . وبلا توقف . .
واكتشفت أخيراً أنني أسكن بالقرب من أغرب محطة في الدنيا . .
إنها ليست محطة سكك حديدية . . بل إنها محطة ولكن بلا سكك . .
إنها ميناء ولكن بلا سفن ولا ماء . . إنها محطة فقط للسفر بين الأرض
والسما . . وكل إنسان مسافر بين الأرض والسما . . وكل مسافر ينتقل
من هذه المحطة إلى مكان بعيد . والرحلة كلها محطة واحدة . . وكل إنسان
له قطار خاص به . . والمسافر يودعه أهله وأصحابه بعد سفره بساعات
وأحياناً بأيام . .

والغريب في أمر هذه المحطة أن القطارات ليس لها صفير ، وإنما الذي
يصفر ويصفق ويضرب الأجراس هم الواقفون على الأرصفة . . كل

ذلك بعد أن يكون القطار أو الباخرة أو الصاروخ قد انطلق . .
 فبيتنا يقع على رأس شارع صغير . وهذا الشارع تنتهى إليه مجموعة
 من الحواري الضيقة التي تتسع لأى صوان يجتمع فيه الناس ليترحموا على
 أحد الموتى . . ولذلك فأقارب الموتى يجتمعون كل يوم بالقرب من بيتنا
 حيث نقطة الانطلاق إلى العالم الآخر . . حيث توجد المحطة التي يسافر
 منها الناس بلا رجعة في قطارات خاصة جداً . . قطارات شخصية لا يراها
 أحد . . وعلى رصيف هذه المحطة يكون ويصرخون .

وآخر المسافرين هو عم إسماعيل . . .

وليس عم إسماعيل شخصية هامة . ولا حتى هو شخصية ، إنما رجل
 سقط بعد الثمانين على الأرض . . ولم يكن سقوطه خبراً هاماً . فقد كان يعيش
 على الرصيف ، وتخرج من الرصيف إلى الشارع . . لقد كان سقوطه
 هيناً . بل إنه عاش ساقطاً ومات ساقطاً . . بل إن الإنسانية كلها ساقطة
 من السماء إلى الأرض . . وكان عم إسماعيل يتربع على عرش من الأحجار
 يتصرف في مملكة الترمس والقول . . وكان يبيعها أحد عشر شهراً في
 كل سنة . . أما الشهر الثانى عشر فقد كان يقضيه عم إسماعيل في
 إيقاظ الصائمين . . لقد كان يقوم بدور المسحراتى .

وأمس جاء دور عم إسماعيل لينام ويصوم إلى الأبد . . أما نحن
 فكان علينا أن نصبح من الثالثة صباحاً ونستقبل مالا نهاية له من أمواج
 الصويت والطيم . . ويأسبى وياجملى . . ويالى ربنا على العز . .
 وعلى الغالى . . ويالى ما كانش حد يشوفك ولا يسمعك - أى أنه

رجل مستور .. رجل في حالة .. من كوم الحجارة إلى عربة الترمس ..
وقد تعودت هذه الأصوات كل يوم .. وتعودت شيئاً آخر ..
ففي الطريق إلى « دار أخبار اليوم » يوجد مستشفى الولادة .. ولا يمضي
يوم دون أن تمشي جنازة .. دون أن أجدهم عدداً من النساء في ملابس
سوداء كالغربان .. والصويت واللطم ويا أختي .. يا ست البنات
يا غالية .. وياست العيلة ..

والطريق إلى مكتبي كالطريق إلى اللجنة : محفوف بالمكاره . مع
فارق واحد أن الطريق إلى اللجنة في اتجاه واحد والطريق إلى مكتبي في
اتجاهين .. ذهاب وإياب .. وأن مكتبي نار فعلاً .. الغرفة ضيقة
خائقة .. إذا أقفلت النافذة تحولت غرفتي إلى حمام تركي .. الأفكار
في رأسي هي البخار وعقلي هو التركي ..

وإذا فتحت النافذة تراحمت الأصوات على أذني .. ولا تزال الأصوات
تملأ أذني حتى تسدها ومن ذلك طرقات الحديد للحديد .. وأنا أشعر
بالصداع الدائم .. لأن الأصوات أصبحت ملموسة .. أصبحت شواكيش
تطير من الورش إلى النافذة وتدق رأسي وتعود إلى مكانها .. إنها شواكيش
موجهة .. شواكيش بعيدة المدى .. شواكيش عابرة للنوافذ ..

وعلماء التجارة والصناعة يعزوني قائلين : إن هذه الأصوات
الصارخة هي موسيقى النجاح والانتعاش الاقتصادي .. إنها أوركسترا
التطور .. إنني يجب أن أكون سعيداً بهذه الضوضاء .. فهي قلوب من
حديد تنبض !

وأتمنى أن أكون سعيداً لولا أن هذه الضوضاء تحطم رأسي
 أن تضغط رأسي في عنقي وعنقي في أحشائي ، وأحشائي في مقعدي ..
 إنها تحاول أن تدفني حياً إنها موسيقى جنائزية .. .
 إنها تحاول أن تجعل من مكتبي محطة لإطلاق روعي إلى عالم آخر لكي ألحق عم
 إسماعيل الذي كان آخر المسافرين أمس .. .

وسنسريح الليلة من صرخات التوديع لعم إسماعيل .. .
 وغداً أو بعد غد تستأنف المحطة نشاطها .. وربنا كريم .. ربنا قادر
 على أن يجعل انطلاق هؤلاء المسافرين نهراً ظهراً بدلاً من أن يستقلوا
 مع الفجر قطار الصحافة إلى العالم الآخر !

عروس من حديقة الأسماك

كانت أول حفلة زفاف شاهدتها في حياتي . لم أعرف ما هي التقاليد التي تتبع في مثل هذه الحالات . لم يكن لدى متسع من الوقت لكي أسأل العارفين ببواطن الأمور . . . كان الوقت ضيقاً جداً . . . تلقيت مكالمة تليفونية في الصباح . وكان الزفاف في نفس اليوم والمكالمة هكذا : ألا تعرفي ؟ وكان جوابي : لا مين ؟ وسؤال آخر : هل تذكر أيام حديقة الأسماك بالزمالك ؟ وكان جوابي : أذكر .

ولكنها أيام مضت منذ أكثر من عشر سنوات وكنت أنا وآخرون من تلامذة الجامعة نلعب الكرة ونقرأ ونتناقش وننام تحت الأشجار طول النهار .

وجاء السؤال : هل تعرف الخادمة ذات الفستان الأسود . . ألا تذكر

تلك المربية التي تتكلم الفرنسية ؟

ولم أكن في حاجة بعد ذلك إلى أن تذكرني أكثر من هذا . لقد كانت أعجوبة في ذلك الوقت . وكنا نلتف حولها ولا نكف عن الدهشة أبداً . كأننا لا نصدق ما نرى أو ما نسمع . . إنها فتاة مصرية هربت من أقاصي الصعيد . . من إسنا . . من قنا . لا أذكر على التحديد . وقد حصلت على البكالوريا الفرنسية . وأحبت شاباً في بلدها . وسمع أبوها بالقصة . وسألها إن كان هذا صحيحاً فأنكرت . ولكن الحزن بدا على وجه

أبيها . وانحنت رأسه وترك لها البيت يوماً كاملاً . . ولم يكن صعباً عليها
 أن تستنتج أنه ذهب ليتفق مع بعض أقاربه على قتلها أو إلقائها في النيل .
 فهربت إلى القاهرة . وفي القاهرة اشتغلت مربية . . تردد بالأطفال على
 حديقة الأسماك . وتخفى في ملابسها ووراء ظهرها عدداً من الرجال لا أزال
 أذكر أسماءهم : تولستوى وفكتور هيجو وبلزاك وموليير وشكسبير . .
 وبين الحين والحين تحدثنا عن قصة (البؤساء) وعن قصة (الحرب
 والسلام) ونحن نتطلع إليها وكأنها سقطت من المزيخ . . وكنا نقول :
 خادمة تتكلم الفرنسية وتقرأ هذه الكتب التي لا نعرفها . . أما غريبة . .
 غريبة !

وأصبحت ماتيلدة — وهذا هو اسمها — ضرورية بالنسبة لعشرين
 طالباً جامعياً هم الآن مهندسون وأطباء ومدرسون وثلاثة منهم صحفيون .
 وذهبت إلى بيتها في الزمالك . . إنها هذه المرة في إبيتها وليست بيت أسيادها .
 وستكون لأولادها مربية وستلعب مع الأطفال في حديقة الأسماك . ولا
 غرابة في ، هذا ولن يكون للمربية معجبون إلا إذا كانت هي الأخرى
 هاربة من أب صعيدى . . ورأيت الأب الصعيدى عند ماتيلدة .
 إنه صامت جامد . على وجهه علامات عرضية وطولية . . إنه مصنوع من
 نفس طينة البلايص والقلل . إنه ما يزال ساخطاً . . وفي بيتها رأيت أناساً
 كثيرين . ورأيت زملاء حديقة الأسماك قد جاعوا بزوجاتهم وأولادهم .
 ورأيت ماتيلدة .

إنها لم تتغير . ولكن أضيفت لها بعض الصفات : وجهها مشرق

ممثلة هادئة الطبع . . وتتكلم العربية هذه المرة . ورأيتها وهي تدفع أمامها
منضدة الطعام . . منضدة صغيرة لها عجلات . . وتذكرني يوم اشترينا
معاً بعض الكتب من الجيش الإنجليزى . ولم نجد وسيلة لنقلها إلى بيتى
سوى عربة كارو صغيرة . . ووضعنا الكتب . ودفعنا العربة أمامى . .
واخترقنا بها كل شوارع الزمالك . . وإلى جوارى سارت ماتيلدة مع
أسيادها من الأطفال الصغار . .

أما زوجها فهو السيد الذى كانت تعمل فى بيته . . لقد ماتت
زوجته وأحب ماتيلدة . . وكان هذا هو حبه الأول أو حبه الأكبر كما
يقول الفرنسيون . . ويظهر أن الحب فى الكبر كالنقش على الحجر . والحب
فى الصغر كالنقش على الماء . . ورأيت الحب منقوشاً على وجه الزوج
بالثالث !

وأدهشنى أن أرى سكيناً كبيراً معلقاً على الحائط . . وقلت ربما
هذه بعض تقاليد الصعيد . . أو سكينه أثرية . . أو سكينه لها ذكريات .
وفهمت منها أنها لم تر أباهما إلا منذ يومين . فقد أرسلت إليه تدعوه لرؤية
ابنته ليقتلها بعد أن فضحته وجعلته يلبس السواد عليها . . ولما حضر إلى
مصر فوجئ بابنته ومعها كثيرون . ولم يتمكن من قتلها وإنما ظل يبكى
وألقي بهذا السكين على الأرض وارتفع السكين من الأرض إلى الحائط
كما ارتفع هو أيضاً من حيوان إلى إنسان . يسكن الزمالك ويشهد الزفاف
ويحلم بأن يكون له حفيد يحمل اسمه الكريم : أبو جريس !

أكلوا مرأتى !

لو عرفت أن شاباً مثقفاً جداً غنياً جداً رافق زوجته فى سيارة وصعد بها إلى شقة جماعة من الرجال لا يعرفهم . . وحياتهم بكل أدب . ثم بعث لهم بقفص من الدجاج وصفيحة من السمن وخروف وظل واقفاً بسيارته عند باب البيت يسمع زوجته وهى تصرخ وهى تضحك وهى ترقص وتنتقل من ذراعى رجل إلى رجل آخر . . وتقع على الأرض . . وتمزق ملابسها . وتنام عارية والعرق والدماء تنزف منها . . ماذا تسمى هذا الرجل ؟ إنه شاب شريف يحب زوجته المثقفة التى تؤمن « بالزار » وحفلات الزار وأطباء الزار ! . .

لقيته مصادفة جالساً فى سيارة أنيقة فى حارة لا تتسع إلا لسيارته . . ولم يحتج إلى وقت طويل يشرح لى سر تعاسته وظهور الشعرات البيضاء فى رأسه . واصفرار أصابعه من التدخين . ونقص وزنه وإصابته بمرض السكر فى هذه السن الصغيرة . . إنه لم يتجاوز الأربعين من عمره . لم تطاوعه نفسه أن يبقى حيث هو . . ترك سيارته وصعد الدرج ووقفنا معاً أمام باب الشقة التى وضعت لها ستائر حمراء ومصابيح حمراء . . وكانت الوجوه مصبوغة بلون الدم . . أو بالدم . . إنها جهنم . . وهؤلاء الرجال والنساء ليسوا إلا ألسنة النار تروح وتجيء وتتلوى وتصرخ . . كل

شيء نار ودم .

وفي هذا الجحيم تتحرك نساء محروقة اللون وقد وضعن البخور على أطباق كبيرة كأنهن « سالومي » تحمل رأس يوحنا المعمدان . . أو كأنهن عشرات من ريا وأختها سكيئة . . وقد تساقطت لحوم الرجال على لحوم النساء . . وتمزقت الفساتين وما تحت الفساتين . . وأخذت الطبول العاوية تصم آذان الشياطين . . وتتساقط الشياطين الواحد وراء الآخر . . وتحول الشياطين إلى بشر . . لها أظافر وأنياب ولها زئير ويتحول البشر إلى حيوانات تحبو على أربع ليركبها الشياطين من جديد . . وتسير فوق الدجاج والخراف المذبوحة . . إن الشياطين ملوك أما نحن البشر فعبيد لهؤلاء الشياطين . . هكذا تقول كل أغاني الزار . . وليس لنا معهم إلا شيء . واحد هو الطاعة التامة . . وإلا بقيت أمراضنا وعذابنا كما هو .

ونظرت إلى صديقي فوجدته قد أسند رأسه للباب وراح في غيبوبة تامة . . وهزته فسألني عن حال زوجته فقلت له : إنني لا أعرفها . . فدهش كيف أنني لم أراه معها أكثر من مرة . . فراح يصفها لي . . ولكنني عند ما نظرت من النافذة لم أر عيوناً خضراء . . ولم أرقوأمأ فارعاً . . ولم أر امرأة واحدة شقراء . . فالألوان حمراء، وكل العيون حمراء، فسحب نفسه بقوة هائلة . . وجعل يفحص النساء أمامه واحدة واحدة وصرخ قائلاً : إنها ليست هنا . . نحن في منتصف الليل . . وهي ليست هنا لا بد أنها نزلت . . لا بد أنها ملقاة في الطريق . . أين هي . . ياناس زوجتي الرحمة ياناس . أكلوها . أكلوا مراني .

وبرزت سيدة سوداء في يدها طيلة كبيرة . . وقالت بهدوء تام :
حضرتة زكى أفندى ؟

فأجبت : إنه هو . .

قالت : وحياتك قل له إن الهانم معزومة بعد كذه عند الست أم
صبرى في حارة زناتى . . فى السيدة زينب . .

وأقفلت الباب وعادت إلى النار تحرق فيها النساء والرجال . . وتشوى
فيها الخراف والدجاج .

وسبقنى زكى أفندى يبحث عن زوجته في حارة زناتى .

إنه مسكين . . ولكنه ليس الوحيد في هذا البلد . .

أحياناً . . أحياناً

أحياناً أشعر كأنى أحمل فوق رأسى « حلبة مصارعة » وأن هناك اثنين من المصارعين فى حالة عراك . . ضرب . . فوق الحزام وتحت الحزام . . وحالة إغماء . . وصفير وتصفيق . . وأن هناك عدداً من الحكام يصرخون : واحد اثنين . . مائة . . ألف . . ومع ذلك لا يزال أحد المصارعين ممدداً على الأرض وينفخ .

وأحياناً أشعر كأن رأسى عبارة عن خلية نحل . . زحام وضوضاء . . وكلها تلسع وتوجع . . وأشعر كثيراً أن النحل الذى يسكن رأسى من نوع غريب . . من نوع عاق كرية . . وأن هذا النحل يجمع رحيق الزهور ثم يحولها إلى عسل ، ويضع العسل فى مكان آخر . . ثم يأوى إلى رأسى لينام . . كأن رأسى بنسيون أو كأنه أحد بيوت الطلبة . . هيصبة وضوضاء . . وحنفيات مفتوحة وأبواب تتكسر . .

وأحياناً أشعر أن رأسى تشبه مصنع تفريخ الكتاكيت . . وعملية التفريخ لا تتم فيه بالطرق الحديثة . . بطرق الزراير . . وإنما بالطرق البلدية جداً . . فهناك عدد من الدجاج ينام على البيض . . والبيض ترتفع درجة حرارته وبعد أيام تخرج الكتاكيت . . ولذلك يجب أن يبقى الدجاج على البيض وأن ألزم الهدوء وفعلاً ألزم الهدوء وأنا جالس حتى

لا ينكسر البيض في رأسى .. وأفاجأ بأن في رأسى معركة . واكشف بعد ذلك أن الذى ينام على البيض ليس دجاجاً وإنما هو عدد من الديوك والديوك لا صبر لها على الرقاد . فالنوم على البيض كالحمل والولادة والرضاعة من أعمال الإناث . ولا تكاد الديوك ترى صورة امرأة جميلة أو أغنية مثيرة حتى تهرب وتضرب رأسى .. تريد أن تحطم الأقفاص .. تريد أن تهرب .. وأسمع الصداع وهو « يكاكى » في رأسى .. وتدور معركة الديوك في رأسى .. وتنخفض درجة حرارة البيض ويفسد .. وتجىء أفكارى ممشئة !

وأحياناً أحس أن رأسى يشبه أسطح البيوت المجاورة لبيتنا .. خالية فارغة .. ليس فيها إلا بقايا كل شىء .. صناديق فارغة وبلايص وأشولة .. وبعض الحياة .. حشرات تهرب من القطط ، وقطط من الكلاب ، وكلاب تهرب من « السماوى » والسماوى يكشر فى وجوه الناس وهى تلعنه .. وأتمنى أن يجىء اليوم الذى أبنى فيه بيتاً له أساس متين .. أساس عميق أبنى عليه صرحاً عقلياً من عشرات الأدوار .. وأصحو وأنام على هذا الأمل .. ولكن فى كل مرة أهرش فى رأسى لا ينزل إلا التراب وإلا العلب الصفيح ..

وأحياناً أشعر أنى أحمل فوق كتفى صندوقاً من الرمل .. جافاً مفككاً .. إنه قطعة من الصحراء . وأنتظر المطر . وأفعل كما يفعل البدو فى الصحراء .. أنتظر وأنتظر .. وأصلى صلاة المطر .. وأرفع يدي .. ثم أمدهما أمامى ، وكأن كل كف طبق ينتظر الحسنة من السماء .. وقد

تسقط من السماء قطرات يبتلعها الرمل العطشان .. وأحياناً تنزل السيول ..
ويبتلعها الرمل .. وعلى القليل من الماء ينبت الشعير والقمح .. ولا تمضي
سوى شهور ويعود الجفاف ويلتهب الرمل .. ويحرقني من جديد .. وأكرر
صلاتي . وندائي ، ولكن لا حياة لمن تنادي !

قوم يا شيخ !

الناس معادن : ذهب وفضة ونحاس . معادن حقيقية ومعادن زائفة .
ولا بد من غسلها من حين لآخر : بالنار بالدموع بالتراب ، حتى لا
تصدأ ، فتصبح حياتنا سخيفة بليدة . .

آه لو كان يمكن « قلب » هذا الكائن الإنسان تماماً كالجوارب
والبنطلونات . . ليكون الجسم في الداخل ، والنفس في الخارج . . آه لو
كان يمكن غسل النفس كما تغسل المعدة والأذن والعين . .
ذهبت أمس إلى أحد الملامى الليلية وفي نيتي أن يتحول هذا الملهى
إلى حمام تركى سباحة فيه زوحى . . بل في نيتي أن أجعل زوحى تغرق
وحتى لو استغاثت فلن ألقى لها بطوق النجاة ولا حتى بقشة صغيرة . .
واخترت إحدى المناضد .

وتلفت ورائى . لا أعرف أحداً . وتطلعت أمامى لأعرف أحداً . . الأضواء
تخفت . . المصابيح كأنها ثمار عصرتها يد في الظلام فلم تترك فيها إلا
البذور والقشور .

وانسابت النغمات والكلمات الإيطالية الدافئة الهامسة . . كل
كلمة كأنها أصبع ناعمة تداعب الأذن . كل أغنية كأنها منديل
حرير . . أو عشرات من أوراق الورد تتناثر علينا . . طلبت من المطربة

أغنية فضحكت . . وأغنية أخرى فازداد ضحكها وقالت : إن والدى
يجب نفس الأغاني !

يعنى قصدها أن الأغنيات التى طلبتها قديمة . يعنى كأننى طلبت
أغنيات لسلامة حجازى وكامل الخلعى ، ولم أطلب أغنية لعبد الحليم
حافظ . .

وفجأة أحسست أن هذا الملهى أو هذا الحمام الذى جئت أستحم
فيه ليس مريحاً كأن الموسيقى والأغاني والناس ماء راكد استحم فيه كثيرون .
إن الماء ليس صافياً . . لماذا ؟ فقد وجدت الأغاني التى ترددها المطربة
لها نظير عندنا . . بل إنها نفس الأغاني . . فهناك أغنية تقول : « زى
زمان وأكثر . . حبيتك وحاحبك على طول . . » وهى خليط من أغنية
لام كلثوم وأخرى لعبد المطلب .

وأغنية أخرى تقول : « حكايتى دى كانت بحكاية . . حكاية حب
من البداية للنهاية » كأنها أغنية شادية . .

وأغنية ثالثة تقول : « بيتو . . يا واد يا بيتو . . حبيتك . . قوى
افتحى له الباب . . قوى ! » وهى أغنية نصفها لفائدة كامل ونصفها
لفائزة أحمد . .

وأغنية رابعة تقول : « أنا زى ما أنا . . وأنت زى ما أنت . . لا أنا
باتغير ولا أنت بتتغير » وهى عكس أغنية لىلى مراد . .

وأمنسكت ورقة وكتبت عليها ، وبعثت بها للمطربة . قرأت الورقة
وضحكت . وانتظرت أنا أغنية وأغنية ورقصة واستراحة . ولم يحدث شئ .

فكتبت ورقة أخرى . رأيتها المطربة وضحككت . وهزت رأسها . وانتظرت .
وأمسكت ورقة وكتبت مرة ثالثة . . ورأيت الدهشة في عيني المطربة كأنها
تسلمت ورقة الطلاق . وأخيراً جاءت تقول لي : أنا مش قلت لك موافقة؟

— طيب فين بقى !

— بكرة . . .

— ودلوقت إيه المانع مش مستعدة والا إيه ؟

— أمال بتقولى إنك موافقة على إيه ؟

— موافقة إنك تكلمنى بالتليفون . .

— لا لا لا . . اللى أنا كتبتة فى الورقة . . دا اسم أغنية . . الأغنية

بتقول : أقدر أكلمك فى التليفون . .

وضحكنا . . ولكنها حرمتنى من أحسن أغنية سمعتها منذ سنوات

فى روما . . فالأغنية تقول : « أقدر أكلمك فى التليفون . أمل . منايا .

أقول لك أى كلام . بس أكلمك . طبعاً أكلمك . أقدر أكلمك

يمكن أكون مشغولة . أبعث لك أخنى . خد بالك . إنها أصغر منى

وأحلى منى ، وأشقى منى . ولكن أنا مش خايفة . إنها تحب شاباً يحبها .

طبعاً أكلمك . . تعرف ؟ أقول لك حاجة . . أنا ما عنديش تليفون . .

دا مجرد أمل . . حلم . حتى فى أحلامى بأكلمك . ومن غير تليفون طبعاً .

طبعاً أقدر أكلمك . . »

واشتعلت النيران فى المصاييح وفى السقف وفى أجسام الراقصات وفيها .

وانتفض الناس كأنهم عادوا إلى حياة الكهوف . وانفتحت شهيقهم للطعام

والكلام والصراخ . وتطلعت إلى الأجسام السليمة الحلوة التي أكلتها
النيران . . . ووقعت عيني على العرق الذي يتصبب من الأجسام . . . هذا
العرق هو دموع اليد والعنق والساق . . . وأنظر إلى الوجوه فأجدها تضحك . .
وإلى الوجوه فأرى عليها أصباغاً وألواناً . .

وأقول في نفسي : إنهم مثلي . . وأراهم يقفزون يميناً وشمالاً ويتساقطون
على الأرض في رشاقة ويضحكون كأنهم ولدوا الآن ، وكأنهم رأوا الدنيا
لأول مرة . . . وأنظر في عيونهم . فأرى أن العيون لا تشارك في هذا
الضحك . . . كأن العيون نوافذ تطل منها نفوس متفرجة . . نفوس لا
شأن لها في هذا كله . كل هذه الموسيقى ، وهذا الحريق وهذا الدخان .
وأقول في نفسي : إنهم مثلي . .

وعندما تنتهى الرقصات . . أرى وجوهاً باهتة . . شاحبة مرهقة ،
تسترت عليها الموسيقى والأضواء والعطور . . ورسمها وزفها لنا وأخرجها فنان
عظيم اسمه : الجوع . .

وساعده في الإخراج : المال والبحث عن جديد . والبحث عن
غسيل للنفس . .

وأقول في نفسي : إنهم مثلي !

إنهم يتعذبون ساعات لكي يتسموا للناس دقائق . . إنهم مثلي !
إن الراقصات والراقصين يظهرون على المسرح دقائق ولكن هذه
الدقائق تستغرق منهم الساعات الطويلة من التعب والعرق والألم والقيود .
كل هذا دون أن يراهم أحد . . إنهم مثلي !

وأحسست طعماً مرّاً على لساني . . وأحسست كأن نفسي « تتظلمط
 في داخلي » ، وأني عاجز عن غسلها أو حتى رشها بالموسيقى أو الغناء . .
 وأخيراً قلت في نفسي : يا شيخ قوم . . أنت مش وش راحة . . قو
 يا شيخ !

وقمت ! لقد حاولت أن أغسل نفسي ، فانكسرت مني . . . !!

تراب الإمباني

التراب مر ، والغاز خائق ، والأصوات فوضى ، وبعد منتصف الليل . . وأناس في جلايب ، يروحون ويحيثون ، ووجوههم صفراء ، من الغاز أو من التراب ، أو من السهر ، أو من التعب . . وأمام مسجد الشيخ إسماعيل الإمباني في إمبابة . اليوم آخر أيام المولد . مولد هذا الشيخ الذي لا يعرف أحد من أين جاء ولا لماذا اختار هذا البلد وهذا المكان وهذا اليوم . أما اليوم فتحدده وزارة الأوقاف ، سواء كان الشيخ ولد فيه أو لم يولد . أما لماذا جاء إلى هذا البلد فيقال إنه هاجر من بلده . . وما هو بلده؟ لا أحد يعرف . ويقال إنه سكن في بيت سيدة عجوز . وفي إحدى غرف الطابق العلوي من بيتها . وكان رجلاً طيباً يصلي دائماً ويصوم كثيراً ، ولا يراه الناس إلا نادراً . ويقال إن أحداً لم يره يشتري طعاماً ولا شرباً . ولم يره أحد يغسل ملابسه . ويقال إن هذا الشيخ كان يختفي نهائياً ويظهر ليلاً . ويقال إنه كان يمشي فوق أسطح المنازل . وفي يوم ذهبت صاحبة البيت تطلب منه الإيجار — ككل صاحبات البيوت — ولم يكن في ذلك الوقت خطاب الإنذار ولا التهديد ولا الحجز ولا الحبس . . إلخ المزايا التي يستمتع بها المستأجر الحديث ! ويقال إنها وجدت الشيخ إسماعيل ميتاً ، ووجدت

هالة من الضوء تخرج من النافذة. وجدت تحت رأسه ذهباً. إن صاحبة البيت لم تتزعج من موت هذا الرجل الطيب ، وإنما راحت تفتش في ملابسه . . وعندما اطمأنت إلى هذا الكثر قامت بالدعاية الانتخائية له وروت للناس معجزاته وكراماته . لقد أخذت الذهب ودفعت الثمن ا وكان الشيخ إسماعيل لهذه الأسباب وعشرات أخرى شيخاً صاحب كرامات فالفاتحة له . لقد قرأ هذه الفاتحة الليلة ألوف من أبناء الريف . جاءوا إليه وهم لا يعرفون من هو ، وناموا حوله رجالاً ونساء وأطفالاً . وشربوا القهوة والشاي والبوظة وامتلأت صدورهم بالحشيش . . الحشيش والتراب والغاز والطبلة و « فتيات الحيشا » المصرية في ملابس ذابلة كأنها بشرتهن أو وجوههن أو حياتهن بعد منتصف كل ليلة . تقف فتاة الحيشا ترقص للزبائن أو المجاورين للشيخ إسماعيل الإمباني ، واحداً واحداً . . وكل منهم يملأ يده منها . . من صدرها العاري المتحرك ، ويمسك وجهها ويديره ناحيته ويقرصها ويعطيها القرش . . ويعود يملأ صدره من الجوزة ، وفيه بكوب الشاي ويعتدل في جلسته ويطمئن على شبابه . والفاتحة لسيدنا الأمباني .

الدين والجنس معاً ، يد في يد ، شيخ وراقصة ، ما خور ومقام . هناك من يرقص وهناك من يبيع المصاحف ، وهناك من ينشد التواشيح وهناك من يطاهر الأطفال .

الدين والجنس معاً . وهذا موجود من قديم العصور . فقد كانت المعابد في بابل والهند واليونان ومصر هي أماكن المتعة الجنسية وكان رجال

الدين هم الذين يديرون هذه المعابد ويختارون عشيقاتهم من الكاهنات و «الراهبات» . . وكانت أعياد الحصاد والخصوبة كلها صلوات للآلهة ، ومتعاً لرجال الدين ، وكما يفعل رجال الدين ، يفعل المؤمنون بهم . .

ومواطنونا في مولد سيدى إسماعيل لا يعرفون هذه الحقائق — إن كانت حقائق — ولكنهم يجيئون من الريف ، بالحلاليب والبطاوى والعصى ، ويخوضون في هذا البحر الغازى المعطر الصاحب الراقص ويعيشون أياماً . إنها فرصة يتحررون فيها من حمل الفأس والانحناء على الأرض ، ويلبسون الأحذية ويضعون المحافظ في جيوبهم ويضحكون للحمص والحلاوة ، والأرجواز وألعاب القوى و « السفيرة عزيزة » . فهذا هو المهرجان الذى يربطهم بالحياة .

ففيه المسرح والموسيقى والرقص والغناء وبكاء المواويل ودوخة الجوزة وشاى لله ياسيدى إسماعيل . . وما حدش واخذ منها حاجة البركة ياسيدى إسماعيل . .

وسيدى إسماعيل يوزع البركة ولا يبخل بها على أحد . . إله يعطيها للبائع الذى يضحك على عقل هؤلاء الريفيين السذج ، ويعطيها للريفي الذى باع زوجين من البط واشترى بثمنها حشيشاً ثم حمل ابنه الصغير إلى صندوق فيه ميكرفون وفي الميكرفون صوت صارخ أمام مقام الشيخ إسماعيل ويقول : اقطع . اقطع يا حاج محمود . . يا أبو إيد خفيفة يا حاج . . والحاج محمود هو : المظاهر . . أى الرجل الذى « يظاهر » الأطفال !

الجنس والدين معاً في مولد سيدى إسماعيل ، أو أى سيدى آخر ..
وأكون ظالماً لو قارنت بين هذا المولد في إمبابة وبين الموالد التى رأيتها
في ألمانيا ، إنها ليست موالد مشايخ ، ولكنها موالد آلهة ، موالد عنب
وتفاح .. موالد نظيفة جميلة ليس فيها الحاج محمود ، ولا البوظة ولا
عرباب المصارين بالسمنة ، ولا فتيات « الخيشا » - نسبة إلى ملايسهن -
ولكنى أكون ظالماً - وغيرى كذلك - إذا طالبت بإلغاء الموالد وإلغاء
أعياد ميلاد المشايخ . فهذه الموالد مواسم للبيع والشراء . بيع الحمص والسودانى
واليلح وأمعاء الحيوانات والمخدرات وهى ، أيضاً أيام للراحة في حياة أبناء
الريف . إنها إجازاتهن السنوية ، إنها نداء الدين والجنس معاً . إنهم
يمرحون ، وإذا أخطأوا استغفروا الشيخ الإمباني . فهو وحده الذى يحمل
عنهم أخطاءهم . إنه هو الذى يمسك الأستىكة المباركة ويمحو ذنوبهم
من اللوح المسطور المستور .

وامتلأت بالتراب : في فى وفى عيني وفى نفسى وأيقنت أن شعبنا فقير
مريض .. أنهم تراب يدب على تراب .. أنهم أسوأ من التراب والسباخ ،
تتراحم عليهم أفكار وأحلام كالذباب والبعوض . جاءوا لينسوا الفأس
والمحراث وصاحب الأرض ودودة المش ، ويدركوا نصيبهم من بركة
الشيخ إسماعيل الإمباني . فأضافوا إلى ترابهم ، تراباً آخر ..

الفاتحة لك يا سيدنا الإمباني !

الشيخة عزيزة

كبدى عليك يا صبية .

كبدى على الفلاحة البيضاء التى تمسك رجلها وتسند ظهرها إلى الحائط
وتعطيك يديها وتقول : أنت محروس ؟

فأقول لها : أيوه أنا محروس .

فتسحب الطرحة البيضاء على وجهها وتقول : الحمد لله على السلامه

يا سى محروس . .

وأقبل يدها . .

فتاة ككل فتيات الريف . . ولكنها طويلة غريضة بيضاء كلها

حياء ، ثوبها أسود ، وعقدها أصفر ، وأساورها من فضة ، وخلخالها كذلك ،

ولها دقة زرقاء ، ولها حسنة خفيفة . إنها آخر نقطة من قلم الطبيعة فى

هذا الموأل الريفى الجميل الذى يتردد بين البيت والترعة .

إذا رآها أبناء القرية . . أحسوا كأنهم أمام ملك من الملوك . . والملك

لا يعرفهم . . . ولذلك يجب أن يقدموا له أوراق اعتمادهم . . فيرفع هذا

طرف ثوبه ليكشف من لباسه الحديد أو حذائه الحديد . . أو يكشف

عن الصديرى أو يلعب بحافظة نقوده أو يغنى . . أو يلعن كلباً عابراً

أو ينادى اسماً وهمياً . . كلهم كذلك . .

حتى أبوها كان يراها فيخرج مسبحته ويدعو الله ويقول : والله نفسي
أفرح بك يا عزيزة . . والله لا يليق بك إلا ابن العمدة . . .

إنه ابن العمدة فعلا الذي يشغلها . . إنه أحسن أبناء القرية . أليس
أبوه عمدة ؟ وهل في البلد أحسن من العمدة . . في العالم كله . . لا أحد
إلا العمدة . . إنه هو ابن العمدة الذي يشغلها والذي تفكر فيه . . وعزيزة
لا تعرف كلمة « التفكير » . . ولكن كل حياتها الآن تفكير . . إذا
نامت تعلقت بين النوم واليقظة . وإذا سارت فإنها تخوض في شيء
بين النوم واليقظة . . كل حياتها كضباب الفجر . . والشمس لا تطلع ،
لأن ابن العمدة لا يظهر إلا مرة في الإجازة السنوية . . وإذا ظهر فإنها
لا تراه . وإذا رآته فمرة واحدة . وإذا رآته فإنها لا تعرف كيف تفتح
عينها فيه . . إنها تحس أن رقبتها كفرع الحمير . غليظ ناشف وأن
هناك ألف بلاص على رأسها . . إنها لا تعرف كيف تنظر إليه . . إنه
ابن العمدة وهي بنت الخفير . .

وتوالت الأيام والسنين وطال ليلها . وضاق صدرها . والصبر نفذ .
والطعام يوضع أمامها وتحمله على أطراف أصابعها وتلقى به من النافذة
حتى لا تراها أمها . ولا يسمعها أبوها . . ولم تعد تمشي على الأرض وإنما
فرشت الأرض بالحصير . . إنها بدأت تصلي . . إنها ككل الصبايا
إذا حارت الوحدة وعجزت اتجهت إلى الله . . ولكنها في الصلاة لا تستطيع
أن تنسى ما يقال عن بنات المدن وما يفعلن مع أبناء الريف . . مع ابن
عمدتها . . إن كل فتاة تتمناه لها وتتمناه لأعز إنسان عندها . . والله وحده

هو الذى سينصرها على كل بنات المدن ويرد إليها ابن العمدة فى جلبابه الأبيض . والعصا فى يده . والسيجارة فى فمه . وكلمة السلام على شفثيه يطلقها دائماً كلما رأى أحداً من أبناء القرية .

وازداد ضعفها وطال نومها . . وكرهت النوم لأنه يحطم جسدها . وكرهت اليقظة لأنها تملأ عليها البيت بأبيها وأُمها وخالاتها وعماتها وبنات الجيران . . كلهم جلسوا حولها وكل واحد ترميها أو تهديها أو تغريها أو توجعها أو تلطمها بكلمة أو بصرخة أو بحكمة أو بتهيدة .
والتقى الليل والنهار فى عينها وفى أذنها وفى غرفتها . . فهى لا تعرف الفرق بين أذان الفجر وأذان العشاء . . فكل أيامها ظلام .
إنها عين أصابتها — هكذا تقول أمها .

إنه ضعف وقلة أكل — هكذا يقول أبوها .
والنبي البنت عليها أسباد — هكذا تقول خالاتها وعماتها .
يا اختى بسلامتها بالها مشغول — هكذا تقول بائعة المتاديل والصابون المعطر . .

افسحوا لى الطريق — هكذا يقول طبيب المركز .
ونامت هى عن هذا كله وتمددت على سرير أسود . وسحبت على وجهها الغطاء . تدفع عن أنفها البخور . وحتى لا تصيبها حبات الملح . أو قطرات الماء من أيدي جيرانها . وهم يفتقأون العيون الحاسدة ، ويرجمون الشياطين التى سكنت البيت .

وتلفت الطبيب يرى الشباب والجمال والهدوء والندى . . وعيوناً

كلوز القطن، ولوناً كزهر البرسيم، ولبناً وزبداء وخيط اللولى .. ويحىء
الطبيب يوماً بعد يوم . وتراه الصبية وتضحك وتراه وتعتدل فى سريرها .
وتراه وتقف وتهض لتفتح له الباب . . وتذهب إلى بيته لتحمل بعض
البيض والجن لزوجه . .

ولكن الصبية تغيرت . . لقد نرعت ملابسها السوداء ولبست البيضاء . .
الجلباب أبيض . والقميص أبيض والطرحة بيضاء . والعقد أصبح مسبحة
طويلة ... فإذا رآها أحد من أبناء القرية قال لها : العافية يا ست الشيخة . .
الدعوات يا شيخة عزيزة . .

وتدعو لهم جميعاً . .

ويقال إن الذى أصاب الشيخة عزيزة كان بسبب حقن الطبيب . .
ويقال إنها القصة التى سمعها عن زواج محروس . . أو الحمى التى
أشعلت دمه . وشوت لحمها وأطارت عقلها . . .

لا أحد يعرف سبباً لهذا التغير كله . . ولكن القليلين جداً هم الذين
يقولون إنه الحب . . وإنها الصدمة التى أسقطت كيائها . وعندما سقط
ارتفع الغبار . ثم تماسك هذا الغبار الأبيض وأصبح الشيخة عزيزة .

واليوم ظهرها إلى الحائط . وتجلس على حصير . وفى يدها مسبحة .
ورجلاها . . ممدودتان . . وجميلة وحولها طفلان يلعبان . إنهما ولدا
« محروس » ابن العمدة من خادمته « فطومة » . . والشيخة عزيزة لا
تعرفهما . .

وبعد صلاة الجمعة تفرق الناس . كل إلى بيته . وتجمعنا نحن وذهبنا
إليها . .

متعة التدخين تكتمل

بالسيجارة الرقيقة

كليوباترا

كنج سايز - بقم فلاتر



سيجارة
٢٠
١٨ قرشاً

سيجارة عربية صميمة
خليط من أجود الأذخنة العالمية

انتاج الشركة الشرقية للدخان والسجائر ايسترن كومياني

- | | | | | |
|---|---|---|--|--|
| <ul style="list-style-type: none"> • شركة التبغ والكبريت الوطنية • وكالة للتأجير والتجارة • الحاج عايض سالم وأولاده • المحلة العربية السعودية. الحاج عبد الوهاب محمد علي جماد • فرع شركة النهر للتصدير والاستيراد في هذه الدول | <ul style="list-style-type: none"> • اليمن • عدن والمخيم العربي • سرقة • المملكة العربية السعودية • دولة عربية افريقيا | <ul style="list-style-type: none"> • السودان/ عبدالعزیز محمود الجليلي • السادة / يوسف عبيد ورفاقه • المؤسسة التجارية الشرقية • السيد/ طالبه ومطعمي فانت | <ul style="list-style-type: none"> • الكويت • الامارات المتحدة • قطر • البحرين • العراق | <ul style="list-style-type: none"> • الموزعون • في البلاد • العربية |
|---|---|---|--|--|

ماء بارد في كل وقت

مُبرِّد المياه.. كولدير

سعة ٦٥ لترا في الساعة

طراز ٦٤ فخر الصناعة العربية

- للشركات والمؤسسات
- للأماكن الخدمية العامة
- للمستشفيات
- للمحلات العامة
- للفنادق
- للأندية والمصانع

التسليم بأولوية الحجر

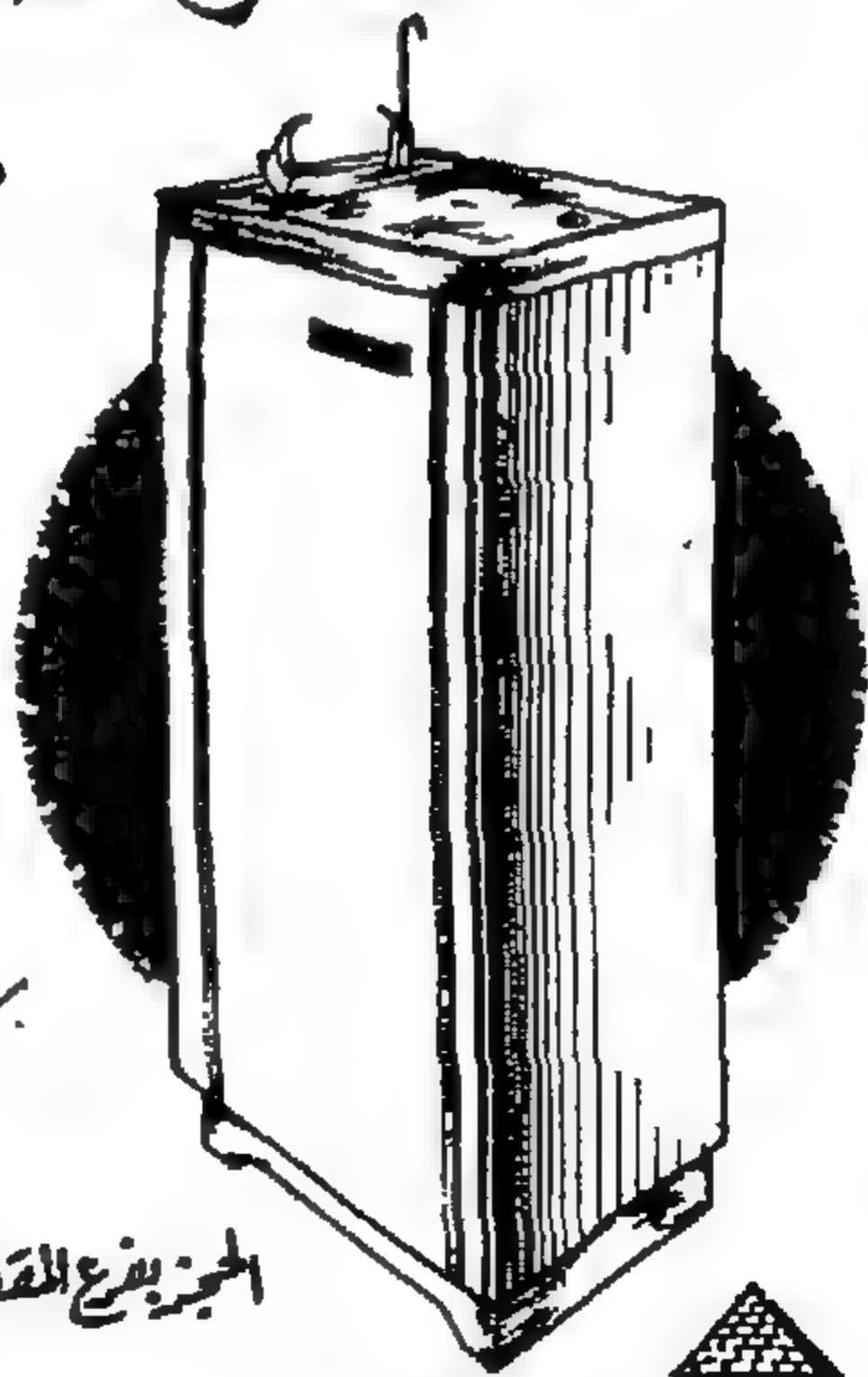
افتتاح مصانع
بشركة النصر للصناعة والتبريد

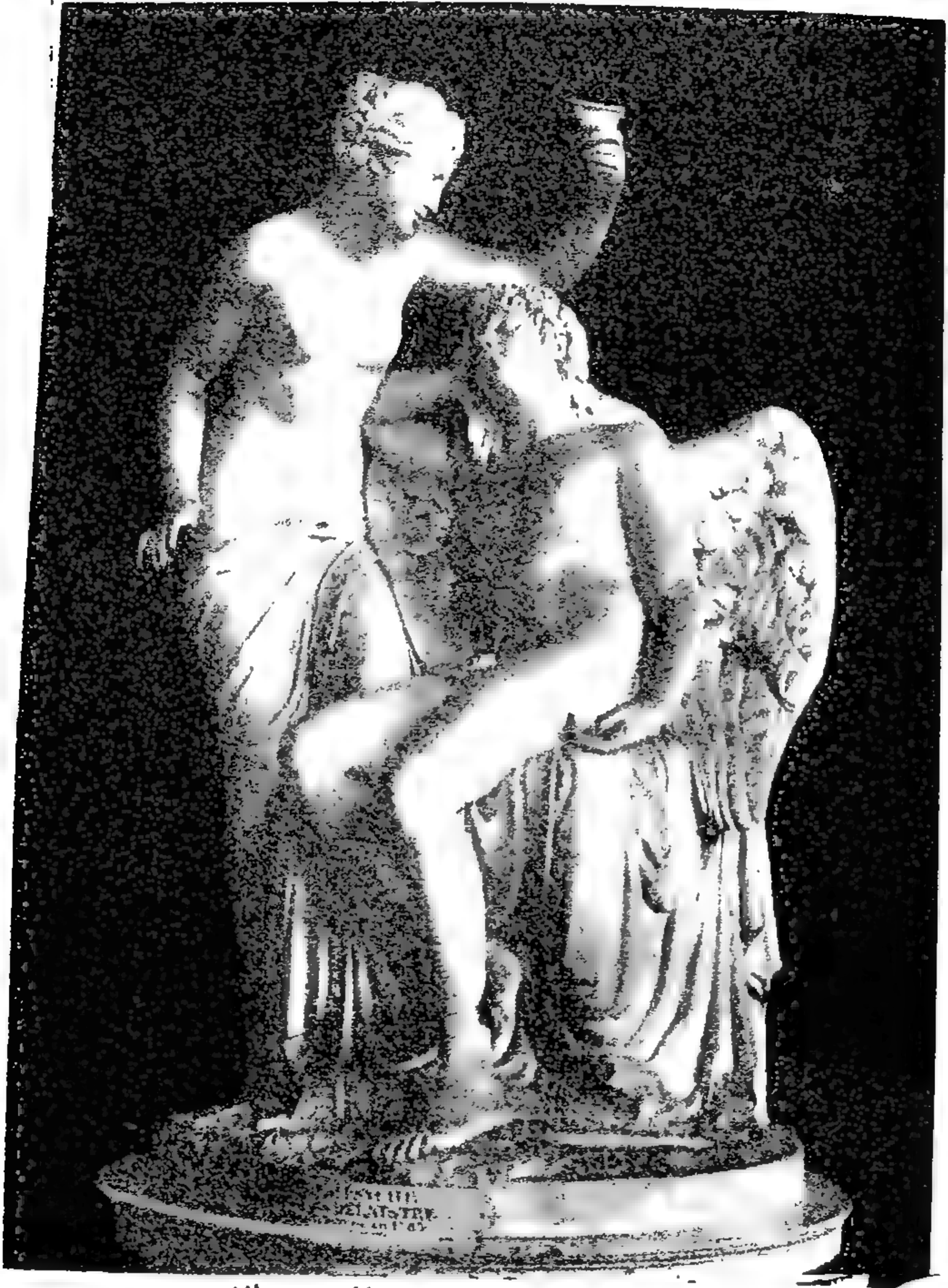
كولدير

ساقية ملك - الجيزة

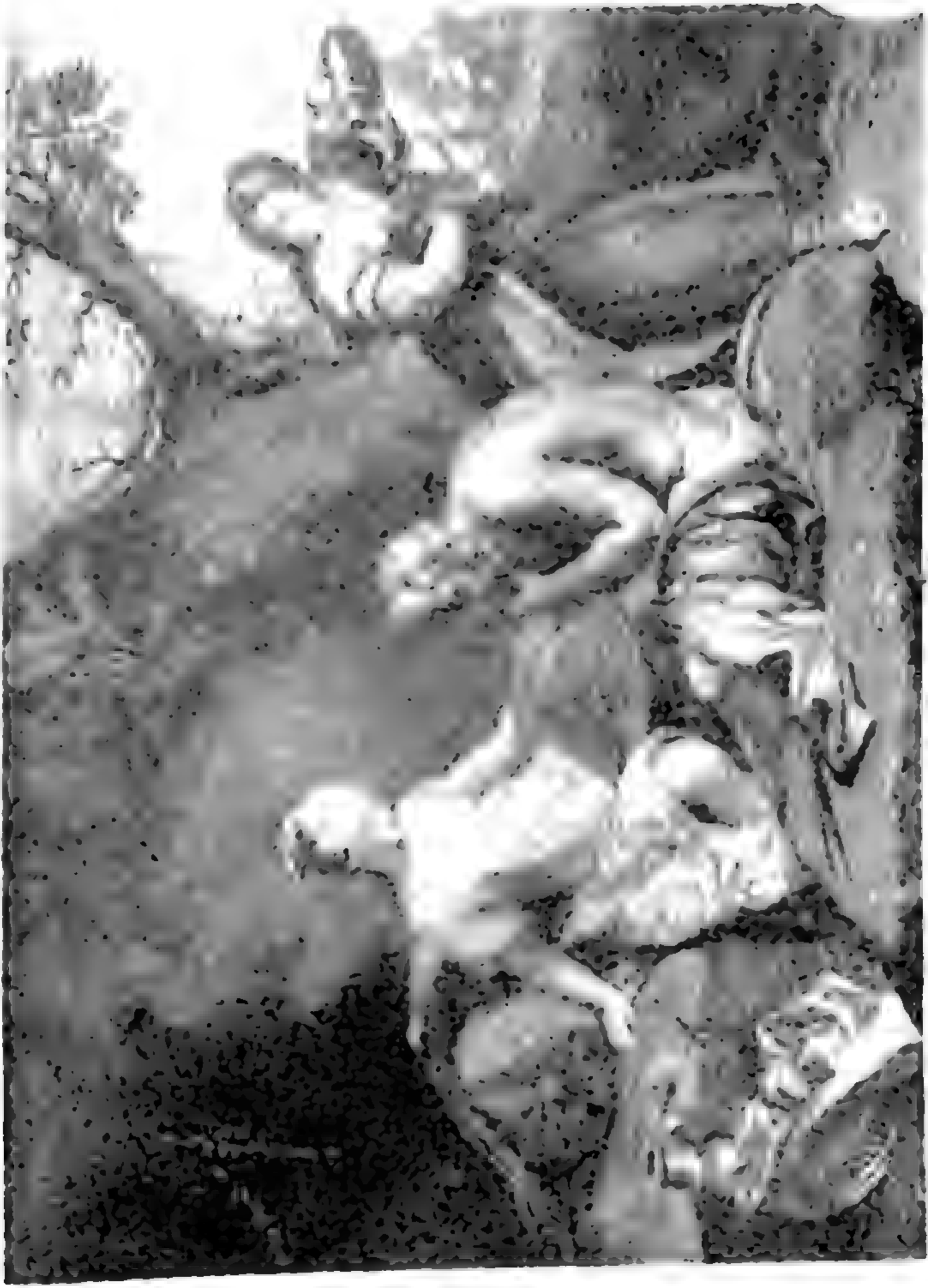
المجزة بفرع المقاولات: ٤٤ عبد الحامد شريف ت ٩١٠٢٤٤

سوى





« كيوبيد » و « سايك » . . إله الحب وإلهته عند الإغريق
(تمثال لافنان « ديايستر » بمتحف اللوفر ، باريس)



بقايا الكاس : ن . والشاب
لوحة من فن « الجرافير » للفنان « ن . فلوجيل »

ونظرت لي وضحكت وقالت : أنت محروس ؟

فقلت : أنا محروس يا ست .

وسحبت طرحتها البيضاء وغطت وجهها ومدت يدها وتعري ذراعها

وظهر بصيص من صدرها وقالت : الحمد لله على السلامة ياسي محروس .

الله يسلمك يا ست عزيزة . .

وقبلت يديها بشفتي . .

وبعيني قبلتها كلها . .

واستغفرت الله !

بل أحد الآلهة !

ساعة كاملة يحدثني ولا يراني . إنه في القمة . وسكان القمم يرون كل شيء صغيراً أو لا يرونه . وفي عبارة مسرحية حزينة قال : انظروا أيها الناس . سيجيء ذك اليوم . سأكون إلهاً !

صاحب هذه العبارة والعبارات التالية شاب في العشرين من عمره . نحيل زائغ العينين . هارب اللون . لا طعم للحياة عنده . لأنه فقد أسنان الشباب ولا معنى لهذه الدنيا كلها . فهو يراها بعين شيخ يائس أو ملاك طاهر .

إنه يتكلم دائماً ويقول : لم أحضر لاستشارتك . أنا اتخذت قراراً . فلن أهتم بشيء مما أدوسه بقدمي . فالذي أدوسه هو الذي سيفنى . أما الذي فوق رأسي فهو الذي سيبقى . كل ما يعلو رأسي من نجوم وشمس وقمر . كل هذا هو الخلود . وأنا مشغول بالخلود بالنجوم التي تلمع دائماً . وأنا سأبقى مثلها . لأنني أعيش عليها . والذي يعيش على الفكر يبقى كالفكر . وأنتم ماذا تصنعون . الورق والخبر سينساه التاريخ . الشهرة والمجد أكاذيب ، تكتبونها وتصدقونها . المال قطع من المعدن القاني تصنعونها وتجرون وراءها وتعبدونها ما حياتكم ؟ ما آمالكم ما دنياكم . ودققت النظر فيه مرة أخرى . وكدت أسأله . فأجابني : ماذا

ستقول غنى ؟ . . مجنون . أرني عاقلاً واحداً في هذه الدنيا ، الجاهل الذى يقتل إنساناً بريئاً . ماذا تسميه ؟ مجنون . والعالم العبقرى الذى يقتل الألوف من الأبرياء ماذا تسميه ؟ عبقرى . بل مجنون ، لا أحد عاقل فى هذا العالم . لا أنا ولا أنت . هذه حقيقة لم أعرفها من الكتب التى تضعها أمامك ولكن من نفسى . إننى لا أنتظر السماء حتى تسقط الماء الذى يبل ريقى . ولكنى أنادى الماء من داخل من جوف الأرض فأفكارى « ارتوازية » بل من جوف الوجود . إن أفكارى من الكون . إنها كالأشعة الكونية . . ستقول مجنون أيضاً .

وعرف هذا الشاب العزلة والغرفة المظلمة . والفراش البارد . والليل الطويل ولوى ذراعيه ويديه . وضغط على نفسه بجسمه وأسنانه وراح يحلم بكل شىء يتمناه ولا يناله . . وجعل يلوى أفكاره كما يلوى جسمه . ومن أفكاره يقيم سلماً طويلاً إلى النجوم . وبعد أن يصعد هذا السلم الطويل يتساقط رأساً ويداً ورجلاً كما يفعل الحواة فى الهند . .

قلت له : أنت فى خلاف مع أهلك .

قال : طبعاً .

قلت : ومع أصدقائك .

قال : طبعاً .

قلت : ومع صديقاتك .

وكان لابد أن ينظر إلى مصدر هذا السؤال . إلى فى . وكأن الذى

اختفى فى فى أفعى سامة . يريد أن ينتزعها بيديه أو يطلق عليها الرصاص .

ولكن عاد التسامح إلى وجهه وقال : فاطمة ؟ لقد تركتها . أحببتها عشر سنوات . لم أنطق بكلمة نائية . جعلت مسافة بيني وبينها . والذين يحبون يعرفون معنى المسافة . ولكن سبقني إليها شاب آخر يسكن في نفس البيت . وأراها كل يوم الآن تلبس له وتترين له وتحبه أيضاً . . ولكن جمال المرأة لن يبقى . هل رأيت العدل ؟ أبداً ! وإنك ترى الناس العادلين ويفنى العادلون ويبقى العدل . هل رأيت الجمال ؟ أبداً . إنك ترى مخلوقات جميلة . ستفنى كلها . ويبقى الجمال نفسه .

وقلت : وهي لا تحدثك ؟

قال ، وهو يضغط على نفسه ويلف ذراعيه حوله ويضم ساقيه كأنه نائم في فراشه : وسلوى قد أحببت عاملاً . أحببت أحد العمال .. طويل عريض . يكسب القرش ويقدمه لها . . هذه عرفتها وأنا في السابعة من عمري . وكنت أصنع لها المعجزات . كنت أمسك العصا في يدي وأقف على سطح البيت وأضع العصا في وجه القمر . وأجعل من القمر مظلة تقيها مصائب الليل . أي مصائب الدنيا كلها . . ولكنها فضلت المصائب وسقطت العصا من يدي ونزلت وبقى القمر ينتظرنى . سأصعد إليه . . لست مجنوناً !

وسكت ثم قال : سأعيش عيشة نبيلة أقصد شريفة سامية . لا حياة النبلاء فأنت تعرفهم . . سأعيش نظيفاً عفيفاً . كالشاعر الإنجليزي بيرون ! قلت : لقد عرف عشرات النساء وأنجب طفلاً من أخته . قال : هذا كذب ، هذا ما تصنعونه أنتم إنكم تشوهون سيرة الدين

ماتوا . سأعيش كالشاعر جيته . أحكم الحكماء .

قلت : وهذا الشاعر قد عرف مائة امرأة على الأقل . وكانت آخر واحدة عرفها في السادسة عشرة وكان هو في السبعين . وكان له ولد من زوجة ابنه .

وكان لابد أن يثور على هذه الاعتراضات التي تندفع كالإبر تحطم أفكاره التي تشبه بالونات الأطفال ولكنه لم يفعل وإنما سحب على وجهه غطاء من الهدوء الشاحب . وأخرج من جيبه ورقة وقال هذا هو الذي سيبقى !

وكانت صورته هو .

وكلام طويل عن الفتيات اللاتي تركنه وبحثن عن غيره . أهي قصة العنب المر ؟ أهي قصة الثعلب الذي مد رأسه إلى العنب فلما لم ينله انسحب قائلاً : إن العنب مر . . أهي قصة الشاب الذي مد يده وأفكاره وأحلامه وأوهامه إلى المرأة والدنيا وأعلن أن طعمها مر فترك الدنيا كلها وجعل يعيش في غرفة مقفلة بأفكار مظلمة . إن حنينه إلى القمر قد رددته كثير من العباقره والمجانين . إن قوله بأنه سيكون إلهاً . قد رددته كثير من الفلاسفة . . إنه يسير في خط مستقيم ولكن الاتجاه خاطئ . . إنه كالقنبلة . والقنبلة مجموعة من القوانين العلمية . وهي تسير في خط مستقيم . وهي متفجرة . ولكنها قنبلة مهلكة لغيرها ولما فيها . . وهو كذلك . قنبلة متفجرة قاتلة له وحده !

وما الفرق بين العقل والجنون . شيء قليل من المبالغة . إن الناس

تحت الجلد متشابهون .

ونخرج الشاب وقد تفاهمنا . وكان لنظراتنا معنى واحد هو : الرثاء..

له ولي !

وكان متواضعاً . إنه لم يعلن أنه الإله الوحيد لهذا العالم كله . وإنما

هو أحد الآلهة . . إنه مسكين لا يعرف كيف يتحدث إلى أحد في بيته .

أو في الشارع أو المدرسة أو أيه أو أمه ولا يعرف كيف يأكل ولا كيف

ينام . .

مسكين لأنه إله !

الفندق المفتوح . .

يخلق من الشبه أربعين — عبارة غير مريحة قلبها وأنا أدخل السينما . .
فقد وجدت أمامي نفس الوجه . نفس الجبهة الرخامية . والأنف الروماني
وصدر عال كأنه البركانان « فيزوف » و « استرومبلي » إنها تشبهها
تماماً . . إذا مشيت انحنت إلى الأمام كغصن شجرة تعلقت فيها إثمار
كثيرة . . أو كأنها تجر وراءها موكباً من كل هؤلاء الناس . إنها إذن
ممثلة السينما الإيطالية « اليانوره ... » . لقد نشرت مجلة « أودجى »
الإيطالية أنها ستحضر إلى مصر لتشارك في افتتاح أحد الفنادق .

لقد قابلتها أول مرة في فندق مينا هاوس . ونشرت لها مجلة « الجليل »
صورها بالمايوه في عز الشتاء وظهert الصور بالألوان . ولكن « اليانوره »
لم تعجبها الصور . فقد بدت فيها سمينة جداً . و « جداً » هذه معناها
مليمتر واحد ، على الأكثر !

وبعد ذلك قابلتها في روما في العام الماضي . وانتظرت منى أن أقول
لها : ياه انت خسيت كده ليه؟ ولكنى لم أقل شيئاً من هذا . فنهتني إلى
ذلك . وقد لاحظت فعلاً أنها نقصت هذا المليمتر . . والسبب هو
الفساتين . فقد كانت فساتينها واسعة كجلد اليوسفندى فأصبحت ملتصقة
كجلد البرتقال . وجلسنا نتناقش في الموسيقى والأدب وفي المسرح وفي

السياسة . وقلت لها بصراحة إنها تقلد ممثلة إيطالية أخرى اسمها «اليانوره روسي دراجو» وغضبت مني . ولكنها الحقيقة . . وظللنا ساعة كاملة نتذكر طعاماً شرقياً أو مصرياً يبدأ بحرف « واو » هكذا قالت هي . وقالت إنه عبارة عن شوربة خضراء يوضع فيها الأرز والخبز . وأخيراً اكتشف أنها تقصد الملوخية .

يعني بالاختصار هي « صديقة عزيزة » . هي التي اختارت كلمة «صديقة» . أما عزيزة فهي من عندي أنا . وهم أو غرور . كل شيء جائز . ولذلك اندهشت جداً . كيف أنها حضرت إلى مصر ولم تسأل عني . وكيف أنني فوجئت بها في السينما مع شاب ليس وسياً ولا أنيقاً ويجلس في الصلاة وليس في البنوار — يعني الحال من بعضه . وحاولت أن أتجه إليها . ولكن الزحام ورائي والفيلم قد بدأ . وأخيراً جلست في مقعدي . وجلست هي ورائي بصفين . . ولكن رأسي اتجه إليها كأنها القطب الجنوبي ورقبتي عقرب البوصلة وشممت رائحة عطرها . إنني أعرفه وله قصه واسمه اسكيباريلى . وعطرها يدل عليها كما يدل الدخان على النار . وهي نار . وحاسة الشم عندي قوية جداً . وكنت أتصور أنني الوحيد بين الناس ولكن قال لي « محمد عبد الوهاب » إنه يتذكر أسماء البلاد والشوارع عن طريق الأنف . . وفي أثناء الفيلم أحسست بوجع في جنبي فابتسمت ، لقد ظننت أنها تقرصني ولكن اكتشفت أن المسافة بيني وبينها لا تسمح بهذه المداعبة . . وتحول القرص إلى وخز . . وبدأ ينتقل من مكان إلى مكان . . بل يبدو أنه اتخذ شكلاً انسيابياً،

لقد جعل يتلوى كالشعبان . . . ويقفز من جنبي إلى بطني إلى ظهري . .
 لقد أحسست كأن في داخلي شعباناً يطارد عصفورة في قفص صدرى .
 ثم ابتلع الشعبان العصفورة ولم يبق إلا هو وحده متكوماً في جنبي الأيسر .
 ونهضت من مكاني أدوس أقدام الناس . وإحجب عنهم الفيلم ولم
 أنس أن أنظر ورأى . . إنها هي . . وإذا لم تتخدعنى أذنأى لقد سمعتها
 تتكلم العربية . . واتهمت أذنئى . . فاللغة العربية مطبوعة على لسانها
 كالأفلام الأجنبية .

وفى الفراش بالتليفون قال لى الدكتور إنه مغص كلوى . .

إذن ليست هذه « اليانوره » . . . « . . . وإلا لانتقل الألم من الكلى إلى
 فوق . . إلى الفندق الذى وجدته مفتوحاً ودخلته . . وأقفلت أبوابه على
 حقائبها ونسيت مفتاحه معى : إلى قلبى !

ساعة من الراحة !

حاولت أن أتملص من الحبال التي تربطني كل صباح كأني خيمة صغيرة في مهب الريح . . حبال غريبة . . إنها تسحب الغطاء من فوقى ، ثم تسحبني من فوق الفراش ، وتدفعني أمام المرأة ، وترمى في وجهي بالفرشاة والصابون ، وتلتي بالملابس فوقى ، وتضرب الباب ورأى وتركلني إلى مكنتي ، وتقلع عيني وتقذف بهما على الورق ، وتلصق سماعة التليفون بأذنى ، وتصيب في في خليطاً من الذرة المحروقة ونوى البلح والكاكاو (القهوة يعنى !) . . وتعصر أصابعي على القلم ، وتهز الأرض تحت قدمي ، والدنيا أمامي . . كل يوم أشعر كأني طفل في طريقه إلى المدرسة لأول مرة ، وأكاد أبكي وأقول : عاوز ماما . . !

. . . وأقول « حاولت » أن أمزق هذه الحبال . . وخرجت منها . . وانطلقت إلى الريف . . إلى قرية بالقرب من الزقازيق . . والطريق ناعم ، والأشجار هامسة . . ولكنني لا أستطيع أن أملاً عيني بما أرى . . فالسيارات ورأى وأمامي وإلى جوارى وأنا أقاوم في نفسي استعداداً هائلاً للسرطان . . إن غيرى يستطيع أن يقود سيارة ويروى النكت ويداعب فتاة حسناء ويدخن سيجاراً في وقت واحد . . وأنا أستطيع هذا كله بشرط ألا أقود

السيارة . . ولكن هذا لا يهم ما دمت سأمزق هذه الحبال هناك . . بعد هذا الطريق . . ستحرقها أشعة الشمس ، ستحرقها دموع المظلومين من الفلاحين ، سيبيخرها النسيم العليل . . إننى ذاهب إلى الشمس لكى أراها وهى ترتفع فى ثوب النايلون الذهبى . . أريد أن أرى الشمس التى يصفونها بأنها فى جمال صوفياالورين وبريجيت باردو . . أريد أن أراها وهى تغتسل فى طين البرك ، ثم تتسلق السماء على بيوت من الوحل . . وتبدو جميلة . . . أريد أن أستحم مثلها ، فأترك طين المدينة وجبرها ، وأبدو لا فى جمال مارلين مونرو ، ولكن فى رشاقة زوجها وصفاء عقله . . ودخلت القرية .. وعلى ضفة جدولها الصغير ، وتحت أشجارها جعلت أتطلع فى صفحة قائمة كأنها قهوة مخلوطة باللبن . . ورأيت ما يراه النائم . . رأيت قرية أرضها من الرخام أو من البلاستيك . . بيوتها من أحجار ناعمة ، إذا لمستها بيدك غسلت يدك كأنها قطع من الصابون .. وفى نوافذها ورود ، وبين الورد طيور ، وعلى أبواب البيوت يقف شبان فيهم حياة وفى عيونهم ذكاء . . كل شىء فى القرية له اسم . . البيوت والشوارع والناس والكلاب والأبقار . . لها أسماء يعنى لها قيمة ، يعنى لها أشياء تخصها وحدها . .

وكان حبلا شدنى من عنقى واعتدلت . ولم أكن أحلم وإنما تذكرت

قرى سويسرا !

والساكن الحقيقى للقرية المصرية لا يمكن أن تراه . .

إنه رجل هزيل يعيش فى ظل جاموسته والجاموسة هى مصدر حياته . .

إنها الأرض والمحصول والفيضان ، وبنك التسليف الزراعى ، وهى المصطبة العالية التى يقف فوقها ليشكر الله على ما أعطاه ! إن الجاموسة هى التى تفتح بيته . . لا بأن تضربه بقرنها . . ولكن هى رأسماله الحى ، هى اللبن الذى يشربه ويبيعه ويلبس منه هو وزوجته وأولاده . . إنه يجد فى قربها كل حب ، وفى رائحتها كل عطر . . وكل محاولة للتفريق بينه وبينها فى الحياه أو فى النوم أو فى المعاملة . . يرفضها ويثور عليها . . ونظرت إلى بعض الشبان الذين تمددوا على جانب من التربة .

وقلت : من هؤلاء ؟

وعرفت أنهم بعض الشبان التافهين الذين تعلموا فى المدرسة واكتفوا بقدر هزيل من المعرفة . . ورفضوا أن يظلوا فلاحين ، وأن يذهبوا إلى المدينة . . لقد تركوا المحراث إلى القلم ، والحقل إلى المدرسة . . وأصبحوا يرون كل شىء صغيراً تافهاً . فالقرية أصبحت فى حجم الخداء ، والأب فى حجم الفأر ، والأم فى حجم الدجاجة . .

ونظرت فى ساعتى . . وأحسست أنى كعقرب الدقائق يتحرك على خطوط فى دائرة مقفلة . . وأن هذه الخطوط لم ترحم قدمى ولا رأسى . . وأننى جئت هنا أطلب المستحيل . . لقد تمنيت أن تعلن الطبيعة حالة الطوارئ فى القرية . . فيلبس الناس أجمل الأزياء ، وأن تغتسل التربة بالماء والصابون ، ويبدو الفلاحون وكأنهم على مسرح الأوبرا يمثلون قصة « القرية السعيدة » أو القرية النموذجية فى المريخ .

ونهضت كأننى شرع مركب التف حوله المراكبية وشدوا حباله ،

لكى تقلع السفينة من وحل وطين وعرق وقرف . . وأنساب إلى مكتبي إلى
 ورق والحبر . وأنظر من النافذة فأجد الشمس تغرب وأرى الدخان وأسمع
 الضوضاء تنهال على الدخان وعلى رأسي فتغرب جميعاً مع الشمس !
 وتلمست الحبال الملفوفة حول رأسي وعنقي وقلبي . . وحمدت الله ،
 فقد كانت أقوى مما تركتها !
 وهذه هي الميزة الوحيدة للريف : إنه ينعش إحساسنا ويجلو أفكارنا
 فنشعر بمتاعبنا أوضح وأقوى !

موصوف لى : ب . ب

همس فى أذنى قائلا : ب . ب . ب . هذه هى الوصفة الأخيرة !
جربها . دلك من كلام الدكاترة . . كلامهم فارغ ! اسألنى أنا !
وب . ب هذه مع الأسف ليست اختصاراً لاسم كوكب السيما :
بريجيت باردو ! ولكن اختصاراً لشيء آخر . .

وذهبت فوراً إلى « النادى الثقافى » وطلبت من الخواجة خرالامبو أن
يصنع لى هذه الوصفه فوراً فإننى لم أنم منذ ثلاثة أيام لا ليلاً ولا نهاراً.
لقد جربت الحبوب المنومة . لقد جعلتنى أنام . أسقط فى بئر عميقة
مظلمة ولا أعرف كيف نزلت إليها . ولكن فى الصباح أعرف بوضوح
أننى سقطت برأسى . فرأسى ما يزال يوجعنى . وما أزال دائئماً . كان
القرص المنوم حشرة غريبة ، تسللت إلى داخلى وسكنت هناك . وكان
لا بد أن أقاومها بالمبيدات الحشرية من الشاى السادة والقهوة المرة . . وأظل
أطاردها حتى تختفى . ويحىء الليل ولا أعرف كيف أنام . . فأعود إلى
الأقراص المنومة . . وإلى الشاى والقهوة . . وأخيراً قررت أن أعدل عن
هذه المعركة . . وأن أبحث عن طريقة أخرى . . .

قال الخبراء : عليك باللبن الساخن قبل النوم . .
وكنت أشرب ما تنتجه بقرة هولندية . ويظل الأرق يمسك رأسى

كأنه كورسيه من حديد . .

وقال الخبراء : بل عليك بالدش الساخن .

في الصيف ؟ في هذا الحر : ؟ يقولون : ما يهمش ! . .

وعانيت حرارة الماء ، وحرارة الهواء ، واكتويت بالعرق . وهلك النوم في داخلي . . وجاء ورثة النوم : الصداع والأرق والإمساك يطالبونني بأن أوقع على كل ساعات الليل كأنني حارس لأحد الورش . . أو عسكري الداورية . . وكنت أفعل .

وقال لي ناقد رياضي : بعض الحركات الانسيابية . . .

وفي الظلام كنت أقول لنفسي : يمين . . شمال . . محلك سر . . إلى الأمام انظر . . كتفاً سلاح . . .

وهرب النوم مني ومن الذين ينامون في الغرفة التي تحتي . . . آه . . لم يبق أمامك إلا الموسيقى . . إن النوم يتساقط السلام الموسيقية إلى عيون الناس . لماذا ؟ لأن هناك قصة إغريقية قديمة تقول : إله النوم اسمه « مورفيوس » . وكان مورفيوس هذا يمسك مزماراً وينفخ فيه . . فإذا الطيور تتساقط من السماء ، والوحوش تخرج من الغابات ، والحشرات تنطلق من الصخور . . وكلها تمشي وراءه وهي مغمضة العيون . إن موسيقاه هي النوم . . وفتحت الراديو وكانت موسيقى . . روك أند رول . وتشاتشاتشا . . وباسادبلو . . وتويست ويبدو أن السلام الموسيقية لهذه الرقصات عصبية متشنجة . لقد كانت تقذف بالنوم من فوقها بعيداً غنى . . ولم أنم !

ومن النافذة أرى على السطوح المجاورة أناساً ناموا . . تكوموا
 والتوا كأنهم مغص سطحي . . وفي نومهم يتحركون كالديد في
 الطين . . وقد أسند كل منهم رأسه إلى شبه وسادة . . من قوالب الطوب . .
 وهات يانوم . . وأتلفت حولي . . الأنوار كأنها عيون ساهرة . . وبدأت
 تطبق أجفانها الواحد بعد الآخر . . والأصوات بدأت تتلاشى . . . إن
 النوم يتمشي من بيت إلى سطح من أب إلى أم إلى طفل إلى كلب . .
 إن النوم ساهر هو الآخر . . مسكين لقد طار النوم من عينه . . ومع ذلك
 لم يشأ أن يمر على غرفتي . . إنها رائحة الوصفة الملعونة : إنها رائحة ب . ب -
 أقصد البيض والبصل !

هارب . . هارب !

غريق في بئر عميقة . . هذا هو شعورى . . إننى أعرف بالضبط كيف كان يشعر النبي يوسف . . فى الظلام والوحدة والرطوبة واليأس من النجاة . . وأصوات الذئاب عند السطح ، وفحيح الأفاعى عند القاع . . وفى يدي حبل أرى به هنا وهناك كما يفعل رعاة البقر . . لعلى أصيد صديقاً أو زميلاً أو أى أحد . . وكان هذا الحبل هو حبل التليفون أتسلل به إلى البيوت . . إلى بيوت أعرفها وبيوت لا أعرفها . . بصورة آلية . . بل إننى أحياناً أترك أصبعى هى التى تفكر لى وأحس أن قرص التليفون هو جيبى وأنا أهرشه بأصبعى ساعة وراء ساعة . .

ولم أسأل نفسى لماذا أنا غريق ؟ ومنذ متى ؟ وكيف أخرج من هذه الحيرة ؟ لم أسأل نفسى . . وإنما استسلمت لهذه الحالة النفسية . . فأنا لا أحاسب نفسى أولاً بأول . . وفلتت منى كلمة : هارب ! !

نعم هارب . هذه هى الكلمة التى تصفنى تماماً . هارب . فأنا لا أكاد أجِد نفسى وحدى حتى أمد يدي إلى التليفون . . أريد أن أشغل أذنى . . وأمد يدي إلى كتاب أريد أشغل عيني . . وأنطلق إلى الشارع أهتم بكل شئ . . أريد أن أشغل رأسى . . وأتراحم مع الناس . . وأحس أنهم يمشون فى مظاهرة احتجاج . . احتجاج ؟ هذه هى كلمة أخرى

تصفني أيضاً : . . فأنا أريد أن أحتج على الهموم التي تطاردني دون سبب .

وفي الليل عندما أعود إلى البيت أحاول أن أهرب من اليقظة إلى النوم . . أريد أن أتسلل بنفسى وراء أسلاك شائكة اسمها الأرق . . فألقى بأقراص النوم في حلقى . . أريد أن « أسهى » نفسى وأنام . . وتقوم محاولة ضخمة للتمثيل على نفسى . . فأنا أصبح كالمرشح الكبير . . تنطفئ فيه أنوار الصالة بالتدريج . . مصباحاً وراء مصباح . . ثم تضاء الأنوار على المسرح . . وأفرح بانطفاء الأنوار ويدق قلبي الدقات التقليدية . . وأتشبث بالستار . . لا أريدها أن ترتفع . . أريد أن أسد لها على قصة اليوم . . على قصة البئر والغريق . . ومع ذلك ترتفع . . الستار وأراني معلقاً في السقف وأجدني مكرهاً على الاستماع إلى مسرحية لا أريدها ولا أحتملها كل ليلة .

ويكنى أن أتقلب في فراشى . . لأصحو من جديد وأحاول مرة أخرى إطفاء الأنوار . . وأشعر أن فكرة واحدة متسلطة على رأسى طول الليل . . وأحاول أن أطردها . . وأحاول أن أتركها حتى تنطفئ وحدها كأنها سيجارة . . وأفاجأ بأن السيجارة قد أصبحت « عقياً » . . وبدلاً من أن ألقى بها بعيداً عني فإننى ألقى بها في داخلي . . فتشتعل حرائق كبيرة في نفسى من الدخان والعرق والنار والأرق . . إن الحرائق تولد من سجائر صغيرة . وهذا صحيح مع الأسف !

وأطلع إلى الساعة في يدي أو على الحائط . . وأشعر أن الساعات

تشبه الدائنين . . كلهم واقفون وكلهم يطالبونني بشيء . . بديوني
 القديمة . . إنهم يشبهون اليهودي شايلوك الذي يتقاضى الديون دماً ولحماً .
 وإن شايلوك ليس مجرمًا . . إنه ينفذ العقد المبرم بينه وبين المدين . .
 وهو نفس العقد الذي أبرمناه نحن . . فوجودنا هو توقيع كبير على
 وثيقة حياتنا . . وحياتنا عمل . . إما العمل وإما الموت . . والموت ليس
 معناه شيئاً كبيراً . . فحياتي بالنسبة لي شيء هام ، بالنسبة للناس لا قيمة
 لها . . وإذا مت فليس هذا يعنى أحداً سوى . . فأبي مات وأنا أعيش
 بعده . . وجدى مات وأبي عاش بعده . . ووجود الناس اليوم بالملايين
 معناه أن الناس في استطاعتهم أن يعيشوا بعد أن فقدوا الملايين من الأعداء
 عليهم .

وأحياناً أنظر إلى الساعة . . وأرى عقاربها . . عقارب فعلا . . وأخاف
 إذا اقتربت أنا منها . . وأخاف إذا ابتعدت عنها . .
 هارب أنا . .

هارب من الشيء الذي لا يهم أحداً سوى . . من الهموم
 التي تنبت فوق كأوراق الشجر . . هارب من الذي لا أقوله ،
 ولو قلته لآزداد عذابى . . فإننى أكره أن أرى الرثاء في عيون الناس ،
 وأكره أن أرى الشفقة على ألسنة الناس . . إننى أحرص على همومى . .
 وأرعاها كما لو كانت قطعاً من الأغنام . . إننى أحرصها وأهش عليها
 والحقيقة أننى أحبها وأحتمى بها . . فأنا الآخر مثلها نخائف من ذئب
 اسمه : الناس !

وأبحث عن قرص التليفون أديره . . أبحث عن الرقم الذي كنت
أديره فترتفع مظلة واقية من الغرق . . وأخري من النجاة . . . لمنني
هارب مني !

إنها حكاية غفير

لأسباب كثيرة يطلق أحد أصدقائي على زوجته اسم « الغفير » ربما لأنها تنام دائماً وتتظاهر باليقظة ، أو لأنها تنام دائماً وراء الباب أو تحت الشباك ، أو لأنها لا تكاد تراه حتى تقف على حيلها في حالة « نخلت سر » أو لأنها تعوج رقبتها في حالة « إلى اليمين انظر » ثم تضع أحد أطفالها على صدرها في حالة « كتنفاً سلاح » ...

وأترك الكلام لصديقي

كل يوم أعود إلى البيت أتصور أنني أخطأت في العنوان . أخطأت في الطابق أو في الشقة . . وأقف وراء الباب في حيرة فأنتي تقول : زربية !!! وأذني تقول : ورشة !!! وعيني تقول : ملجأ !!! ..وعقلي يقول : مجنون !!! وقلبي يدق بصوت مرتفع كأنه يصفق لعقلي !!!

وأنا أكره أن أجد الغفير صاحبياً ، وأكره أن أجده نائماً . فإذا كان صاحبياً تحولت بسرعة إلى أحد اللصوص . فالغفير يسألني : أين كنت ومع من ؟ فإذا قلت كنت مع بعض أصدقائي . كان رد الغفير : ومن أين جئت بهذه الرائحة العطرية ؟ وإذا اعترفت بأنني كنت مع بعض الرجال والنساء ، فلا بد أن أذكر اسم كل واحدة ولون فستانها وأين كنت أجلس وماذا قلت وماذا قالت .

وأكره أن أعود إلى البيت فأجد الغفير نائماً . إننى أكره الصمت ،
أكره الوحدة . أريد أن أتحدث إلى أحد . أن أقول أى شيء أن
ألعن أحداً أو شيئاً . وقد حدث كثيراً أن عدت إلى البيت فوجدته
ساكناً كالمقبرة . فضربت أحد المقاعد برجلي فسقط المقعد وتزحلق
على الأرض ... وجاء صوت الغفير من الداخل : مين اللى بره ؟ فقلت :
أنا الحرامى !

ورقعت زوجتى بالصوت ١١١ .

وبعد ذلك عرفت أن الغفير لم يكن ساذجاً عندما تصور أننى أنا
الحرامى . فأنا فعلاً أحاول أن أسرق هذه الأسرة .. أحاول أن أسرق راحتها ،
أن أسرق أموالها إننى أتامر على أطفالى ، أريد أن أسلبهم والدعم ...
وأن أقدمه هدية لفتاة أخرى ، لقد مللت الحياه مع غفير ، وأريد أن
أعيش مع زوجة .. فزوجتى غفير يحرس أولادى ويحرس بيتى ويحمى
مستقبلهم منى وأريد أن أجرب القيام بدور صاحب البيت ، لا سارق
البيت ١١١ .

ولاحظت أخيراً أن زوجتى تسلطنى على أولادها فأنهال عليهم
ضرباً . أى أننى أقوم هذه الأيام بدور « نبوت » الغفير .

ولاحظت أيضاً أننى أشعر بارتياح عندما أضرب أولادى . إن
أولادى يشبهون الغفير . . فأنا أضرب الغفير فى كل واحد منهم ، فأنا
أفقاً عين الغفير فى ابنى الأكبر ، وأكتم أنفاسه فى ابنتى الكبرى ، حتى
الطفل الرضيع أتهدم عليه ، كأننى أحاول أن أردّه إلى مكانه من بطن أمه ١١ .

و كنت أقول لنفسي إن الزواج كحقنة البنج لا يشعر بها الإنسان إلا لحظة واحدة وبعد ذلك لا يدرى بشيء والزواج فعلا حقنة في العضل وحقنة في العرق وحقنة شرجية وحقنة على يد مآذون !!! .

وهذه الأيام بدأت أشعر بكل هذه الحقن . كأنني أخذت الحقن وأنا في حالة إغماء شديد ، وعندما أفقت أوجعتني جميعاً . إنني مريض بالغفير إنني أشعر به في يدي وفي رجلي وفي ظهري وفي جنبي إنه مرض متنقل اسمه « الغفوس » على وزن النقرس !!!

وإذا كان النقرس مرض العظام ، فإن « الغفوس » هو مرض العظام أيضاً — أي — أصحاب المصائب العظيمة !!!

كأن حياتي كانت مكتوبة بحبر سري لا يراه أحد . وفجأة بدأ هذا الحبر يظهر حرفاً حرفاً وكلمة كلمة ثم أخذت الكلمات تتجمع وتتكون كأوراق الكوتشينة وأمد يدي لأقلب ورقة وأجد مكتوباً عليها كلمة : شقاء !!!

وأصبحت هذه الأيام شخصاً لا يطاق عندما أدخل البيت يشعر كل من في البيت أنني قنبلة تسيل لها الدموع والدماء وتنبعث لها روائح كريهة فالغفير يقف وإلى جواره « العهدة » — أي الأولاد — والأولاد يتعلق بعضهم ببعض تحت اللحاف وفي دورات المياه وكنت فيما مضى أدخل البيت كلص ظريف أما اليوم فإنني كمجرم عادي جداً أفتح الباب وأستند إليه بظهري وأشير بيدي إلى أعلى وأسفل كأنني قائد أوركسترا من الأشباح أو كأنني ناظر مدرسة الصم والبكم !!!

و كنت أصدق فيما مضى أن الزواج كالفيلم الناجح ، يجعلنا نبكى
 أثناء العرض ثم نصفق في النهاية ، ولكن يبدو أنني دخلت الفيلم من
 آخره ... صفقت أولاً وبكيت أخيراً ... بل حتى ولا هذا ، فإنني على
 يقين من أنني دخلت وخرجت من السينما أثناء العرض ... ولذلك أحاول
 أن أدخل фильماً جديداً ، أحاول أن أذهب إلى السينما قبل ارتفاع الستار ..
 انتهت أقوال صديقي ...

وفي الأيام الأخيرة اختفى صديقي ، وعرفت أنه ينام نهاراً ، ويصحو
 ليلاً ... فقد غضب الغفير وعاد إلى أهله وترك « العهدة » كلها في
 البيت ... وجاء دور صديقي ليقوم بدور الغفير ونبوت الغفير وهو الآن
 في انتظار اللصوص !

دنيا عم إسماعيل

— قل لي يا عم إسماعيل ... أين كنت أمس ؟

— هنا .

— لم تتحرك ! وأول أمس !

— هنا أيضاً . الدنيا تلاهى !

وعم إسماعيل بائع متجول . . بائع عنده عربة . والعربة لها عجالتات . .
ويستطيع أن يدفع العربة أمامه إلى أى مكان فى شارع ٢٦ يوليو . .
ولكن عم إسماعيل مصر على أن يبطل عمل العجلات . ويجعلها تتشبث
بالأرض ؛ أما الدنيا التى تحدث عنها عم إسماعيل فهى لا تزيد على مائة
متر طولا . . ومتر واحد عرضاً . فهو ينتقل من بيته إلى المكان الذى
يقف فيه بعربته فى الشارع . . إنه لا يعيش فى دنيا . وإنما هو يعيش
فى نفق . فى أنبوبة هوائية . طولها مائة متر . وقطرها متر واحد وهذا الممر
الضيق ، هذه القصبة الهوائية ، هذا البلعوم أو ماسورة الغادم . . هذه هى
دنيا عم إسماعيل !

وهو لا يسكن هذه الدنيا وحده . وإنما معه أولاده وزوجته وأقاربه
وبعض الباعة المتجولين وكل واحد منهم يعيش فى أنابيب من نوع
خاص . أضيق . أوسع . أقصر . أطول . ولكنها أنابيب . عم إسماعيل دنياه

لا تزيد أبداً منذ عشرين سنة .

وهو لا يعرف من شارع ٢٦ يوليو إلا هذه المساحة . ولا يعرف من القاهرة إلا بعض الأماكن التي كان يتردد عليها وهو شاب أو وهو طفل . والدنيا غيرته . أو تغيرت هي . إنه لا يعرف .

وهو يطلب من الله شيئاً واحداً : الستر . .

فإذا مرض يطلب الستر . يعنى العلاج .

وإذا نامت السوق . يطلب من الله الستر . يعنى الفلوس . .

وإذا مات — وهذا هو الأهم — أن يجد ثمن الكفن والدفن .

ودنيا عم إسماعيل يتحرك فيها الذئاب والوحوش الذين يأكل بعضهم البعض . وهو لا يخاف إلا من الخطافين أو الباعة المتجولين مثله . وهو لذلك يصالحهم ويصافحهم . ويمد لهم يده . . وشعاره : يجب أن تمد يدك دائماً وهى مليئة بشيء . أو إذا لم يكن شيء فلا أقل من الحرارة . . . حرارة السلام والتحية والوداع . يجب أن تمد يدك للناس . تربطك بهم صلة . . هذا أسلم من شرهم .

— وأين تعلمت هذه الأشياء يا عم إسماعيل ؟

— الدنيا يا ولدى . . الدنيا علمت الحمار وجعلته يمشى على التبين دون أن يطلع على الرصيف .

وترددت فى كلامى مع عم إسماعيل . كلمات : الشخصية . الحرية والوجود . .

ولاحظت أن كل هذه الكلمات ليس لها أى معنى . ولا أى مدلول .

ولاحظت كأننى أتكلم عن قطع غيار السيارات الكاديلاك لرجل لا يملك
إلا عربة كارو عليها خيار ازداد اصفراراً من الشمس . . . وعليها حبات
من الطماطم وبعض العنب . . .

الشخصية معناها الطماطم . والوجود معناها أن يجد مكاناً بالقرب
من الرصيف . والحرية معناه أن الطماطم تتحرر من ضربة الشمس .
منك نستفيد يا عم إسماعيل . . .

خوازيق الغرام !!

حدث كثيراً أن تقدم أحد أبناء البلد إلى الخاطبة يسألها عن عروس .
وتأتى له بعروس وتعجبه . وليلة الدخلة يجد نفسه أمام عروس أخرى .
لقد خدعته الخاطبة وعندما يحاول الهرب ، يجد أن أهل العروس الذين
يطلقون الأعيمة النارية « فى الفاضى » يهددونه بإطلاقها فى المليون . . .
ولكن هذا هو الذى يحدث كثيراً جداً بين أبناء المدن . فالواحد
منهم يخطب فتاة . وليلة الدخلة يجد نفس الفتاة . ويهرب معها فى شهر
العسل . وبعد ذلك يكشف كل يوم أنها فتاة أخرى . . .

وكأنه تزوج أخت العروس ، وكأنها تزوجت أحد المدعوين . . .
فأيام الخطبة هى عمل فيش وتشبيه للعروسين ، وشهر العسل هو
محاولة « مضاهاة » بصحات العروسين الذين أصبحوا زوجين . . .

ويحدث كثيراً جداً أن يكشف العروسان تزويراً فى المستندات

الرسمية !!!

أعرف مهندساً تخصص فى الحرسانة المسلحة . وتقدم المهندس
لخطبة فتاة وتزوجها . وكان حديثه كله طبعاً عن الزلط والأسمت والشكاير
والحديد والصلب . وكانت أطول مناقشاته حول الخوازيق التى يجب أن
يدقها فى الأرض قبل بناء العمارة . وكانت له فلسفة خاصة فهو يقول

لها: إن العمارات العاليه تحتها خوازيق عاليه . وكلما كبر الخازوق ، ارتفعت العمارة . وهو يقصد بلغتنا نحن : أنه ليس أحسن من الفقر والتواضع ، وأن العمارات الصغيره لها خوازيق صغيره ... ومتاعب قليله ... وكان الكلام يتساقط من فمه كالدبش ، ويتزل على رأس الفتاة كالطوب : ولكنها كانت سعيدة به جداً . كانت ترى أن كلامه كالخوازيق . ولكنها الخوازيق التي لا بد منها لعمارة الحب ، وقصر السعادة ، وناطحة السحاب ... وكانت تنزل مع الخوازيق تحت الأرض ، وكانت تتشلق مع العمال فوق السقاييل ، وتتشببط على أنابيب المياه ، وتصرخ عندما ينقل الباب على إصبعها ... كل هذا وهى سارحة فيه ومعه ... وكانت ترى أن الزلط والطوب أروع وأجمل من اللب والحمص والسوداني مع الشبان الصغار الذين عرفتهم قبل الزواج . ولكنها أحست بالملل . ملل الاستماع ملل الصمت . لقد شعرت أنها التلميذة الوحيدة في كلية الهندسة قسم العمارة فرع الحرسانة ... وأن زوجها هذا يحاضر ليلاً ونهاراً . وليست هناك مقررات . وليست هناك امتحانات للترم الأول أو الثاني ... ولا توجد إجازة لنصف السنة ولا آخر السنة والمحاضرات تبدأ بغير جرس ، وتنتهى بغير جرس ... وفي استطاعة التلميذة أن تنام وأن تأكل ويظل الأستاذ يتكلم بلا توقف ...

وأحس هو الآخر بالملل . فقد كان يعرف قبلها فتاة . فلم تستطع هذه الفتاة أن تصبر طويلاً على الحياة بين الطوب والزلط . وكانت تهمة

بأنه مأمور ضرائب يحلم بأن يكون وكيل نيابة إدارية في مصلحة المباني ١١
وتركته هذه الفتاة . وعندما عرف زوجته . ظن أنه يستطيع أن يدخل
قلبها إذا بدا أمامها كبيراً عالماً جليلاً . مهندساً بارعاً . يحول الأرض
الخراب إلى عمارات ، يحول الحجارة إلى سلام ، والزلط إلى حوائط
ناعمة ... وقد أقام الكثير من العمارات ولكنه نسي زوجته في البدروم
مع البوابين .

ولم تعرف زوجته أنه كان يخفى خجله . كان عندما يتحدث إليها
لا ينظر إلى وجهها . يخاف من عينيها . فهو رجل بلا تجارب وكان
كثير السرحان . وكان السرحان غشاء يتستر وراءه حتى لا ترى الزوجة
حيرته وليخته .

والدنيا كلها عنده عبارة عن قلل وبيوت وعمارات ...
وحياتهما عبارة عن بيت له ثلاثة طوابق . الطابق الأول هو الجنس
والثاني هو الحب والثالث هو الصداقة ...

وهناك نساء كالعمارات ، لها باب واحد ...

ونساء لها أكثر من باب ...

ونساء لها واجهة جميلة فقط ...

ونساء لها مداخل من الرخام الأبيض الملون ...

ولم يعرف كيف يتراجع ... لم يعرف كيف يرتدى ملابس الطلبة ،
ويرى روب الأستاذ ...

وهي الأخرى لم تحاول أن تتراجع عن الاستماع إليه والسرحان في
شيء آخر .

وأصبح كل شيء مملا . صمتها ممل . وكلامه ممل !!!

ونحن عندما نتزوج فإننا نحاول أن نهرب من الصمت الممل . وعندما
نفر من الزواج نحاول أن نهرب من الكلام الممل ...
وأصبحت حياتهما مملا ...

واكتشف كل منهما أن الآخر قد زور في الأقوال والأفعال
والشهود ...

ولم يصارح أحدهما الآخر ...

فقد قام « الخجل » بدور الخاطبة التي زورت العروسين ...

واتفق الاثنان على الانفصال ... ليبدأ كل منهما حياته من جديد ...
ولكن مع إنسان آخر ... حياة الأكواخ والكباين والحيام ... حياة
بلا خوازيق !

مذهب الكدهوية !

اتفق رأى الأطباء على أننى يجب « أن أشوف لى حل » . . أنا الذى يجب أن أبحث عن الحل ... فقد حاروا . .

ليس الكبد هو السبب ... ولا الأمعاء الغليظة ولا المعدة ... ولا القلب ... وقد تكون الأسباب وراثية ... وقد تكون الأسباب عصبية ...

أما أنها أسباب وراثية فهذا مستحيل فقد كان والدى ينام ويستغرق فى النوم فى أى وقت يريد وكنت أنا وإخوتى نتبارى فى رؤية والدى وهو ينتقل من اليقظة إلى النوم إلى أعماق النوم ... فكان يطلب منا أن نعد من واحد إلى خمسة ... وقبل أن نصل إلى أربعة يكون قد نام . فليست الوراثة أبداً . وقد صدق المثل القائل : يخلق من ظهر النائم ساهر . .

وليست الأعصاب ... فأنا متنبه جداً . والسبب هو الطبع أو هى الهموم أو هى المخاوف أو هى عشرات من فناجين البن طول النهار وطول الليل أو هو انتظار النوم الذى لا يجىء !

ولكن الأعصاب كالحديد مشدودة طول الوقت ... وألاحظ أننى أحتمل الكثير من المواقف . ولا أقول بالابتسام ولكن بالصمت أو بمحاولة الدوران حولها . يعنى الأعصاب لا بأس بها ...

إذن سبب أرقى وسهرى ليس الوراثة ولا الأعصاب ... ليست وراثتى ولا طبيعتى ... ويبدو أن مشكلتى مع النوم هى مشكلة أدبية ... مشكلة لغوية ...

فأنا أعامل النوم باعتباره مذكراً ... باعتباره رجلاً مثلى ... رجلاً يحفظ كلمته ولا يخلف وعده فهو يعلم أننى على موعد كل ليلة . ومع ذلك لا يجىء ... أو يجىء متأخراً عن مواعده ساعات .. وهذا يضايقنى والضيق يجعلنى عصبياً . وعندما أكون عصبياً لا أنام ... فيصبح جسمى كله فى حالة استعداد ... فى حالة طوارئ ... الأنوار الحمراء فى عيني والصفارات فى أذنى ... والأجراس فى صدرى .

ومنظرى ... كمنظرييت احتشد أمامه الناس وكلهم يصرخون ... وأمامهم وقفت سيارات المطافئ والإسعاف والنجدة والآداب ... إن هذا المنظر يخيف أى إنسان أى زائر لك حتى لو كان هذا الزائر هو أعز صديق لك . حتى لو كان هو النوم !

ويجب أن أغير علاقتى اللغوية بالنوم .

يجب أن أعتبر النوم « مؤثماً » ...

أعتبره فتاة ... فتاة جميلة أوقبيحة ... وإنما هى فتاة والسلام ... تجىء كل ليلة وتعطينى شيئاً منوماً ... فى العضل ... فى الوريد ... فى الضرس ... فى العين ... لا أعرف أين ... ولكنه شئ من نوع غريب . وليس مهمّاً أن هذه الفتاة قبيحة الشكل ... فالمرأة هى المرأة .. سواء أكانت م . م أى مارى منيب أو م . م أى مارلين مونرو . ولذلك فهى

لا تهتم بالمواعيد ... لأنها تتصور دائماً أن الرجل يجب أن ينتظرها ...
يجب أن يتوقع مجيئها بين لحظة وأخرى ...

ولكن شعورى بأن النوم امرأة قبيحة ومع ذلك لا تحفظ مواعيدها
يلهب أعصابى ويخلق « تماساً » فى أعصاب العين والأذن والأنف ...
فأظل طول الليل فى حالة احتراق وتدخين ... ومعنى ذلك أنى لا أنام ...
والحل الوحيد هو أن أتصور أن النوم فتاة جميلة وأنى ميت فى
هواها ... وأنى لا حياة لى غيرها ... وأن كل جسمى يجب أن يحتفل
بها ... يجب أن أتمس لأنفى طريقاً إلى عطورها ، ولأذنى سبيلاً إلى
أنغامها ... ويبقى جسمى ممدداً على الفرش كأننى تربيذة سفرة عليها
الطعام ... والطعام فى انتظار ست الحسن والجمال ... ستجىء متأخرة
عن مواعدها . ولا مانع فهذا شرف عظيم ... المهم أن تجىء ...
ولا يجب أبداً عندما تجىء ست الحسن أن أناقشها الحساب ... لماذا
تأخرت ... ومن الذى عاكسها فى الطريق ... ومن الذى كانت تكلمه
فى التليفون ... ولا يجب أن أسألها إن كانت ما تزال تحببى ... أبداً لأنى
فى معركة معها ... مع الغيرة مع الحيرة ... ولكن هذه المعركة يجب أن
تنتهى قبل أن تبدأ . . يجب أن أرفع علماً أبيض فى نهايتها . . فأحسن
وسيلة للانتصار فى معركة المرأة هى الاستسلام لها ... هى الانسحاب
أمامها ... هى الهرب من مواجهتها ... إذا هربت منها ، هربت وراءك .
وتركت أهلها وأحب الناس إليها من أجلك ...

ومشكلتى مع المرأة التى هى النوم أو المرأة عموماً ... أنى أحاول

أن أفهم تصرفاتها أولاً وثانياً وثالثاً وبعد ذلك أتصرف كما تريد هي ...
ولكن عيب هذا النوع من التفكير أنه لا ينجح إلا مع الرجال ... ولكن
المرأة لا ينجح معها أى تفكير ، أية محاولة لكى تكون عاقلاً ، فلا
فكر ولا عقل ولا منطق ... وإنما « كده هو » و « كده هو » معناها
أنك تتصرف أولاً بأول ... حسب الموقف .. بلا خطة ولا برنامج ...
و « الكدهوية » هو أقدم مذهب عرفه الإنسان منذ نزل من السماء إلى
الأرض .. وقد كانت سياسة والدنا آدم ، تمشى على قواعد « الكدهوية »
وإذا حواء أكلت من التفاحة لم يعاتبها ... وإذا استمعت إلى الأفعى
لم يعاتبها ... وإذا قصرت لم يؤاخذها ... فلم تقع بينهما معارك ... ولم
يمسك حجراً أو شجرة ويحطم رأسها ... ولذلك عاشت البشرية واستمرت
لأنها طبقت « الكدهوية » تطبيقاً كاملاً ...

ولذلك لا أتوقع أن أنام لا اليوم ولا غداً ما دمت غير مؤمن بقواعد
الكدهوية ... فى الحياة عموماً ومع المرأة خصوصاً ... ومع النوم بالذات .
ولكنى اهتديت إلى حل أحسن .

فقد لاحظت أننى أثناء ابتداء من منتصف الليل ... بشرط أن
أكون خارج البيت فإذا وصلت إلى البيت ... طار النوم ... ويبدو أن
النوم طائر حريضي يق بالحبس والقيود ... وقد حاولت أن أغرى هذا
الطائر بأن أفتح له النوافذ ... وأن ألقى له بالغطاء من فوقى ... لعله
يبقى طول الليل ساهراً فوق رأسى ... ولم أفلح ... وأذكر أننى فى إحدى
المرات وقفت بسيارتى أمام البيت ... فاستغرقت فى النوم ... فتطوع

بعض الجيران وأيقظوني ... فقد ظنوا أنني مريض ... أو أنني في حالة إغماء . وقد نصحتني بعض الأصدقاء أن أنصب خيمة أمام البيت وأنام فيها ... وقد رفضت هذه الفكرة ... لأن الخيمة إذا أقفلت جوانبها فستتحول إلى بيت ... ويهرب النوم مني مرة أخرى ...

والحل الوحيد هو أن أعمل كما يعملون في أمريكا ... فقد رأيت في أمريكا سيارات ، كثيرة مكتوب عليها (عريس وعروس) ... أو « بداية شهر العسل » .. أو « اليوم الأخير من الشهر الحلو » .. وكان الناس كلما رأوا أصحاب هذه السيارات ألقوا عليهم بالورود وتمنوا لهم السعادة .. ولذلك سأقف بسيارتي أمام باب البيت وأكتب عليها « نائم » ... أو « دعوني أنام » أو « الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها » ... أو الفتنة نائمة فقط ولا داعي لشتيمة الناس ... والمشكلة هي أن الفكرة جديدة وسيُنظر إليها الناس في دهشة وسيلتفون حولي ... وستقام حفلات العزاء وكل واحد منهم يأخذ بخاطر الآخر ويطالبه بالصبر والسلوان ... فقد كنت رجلاً طيباً والأعمار بيد الله ... لقد مات عقل الأستاذ !

فما هو الحل ؟

إن الجواب على هذا السؤال هو ما أناقشه كل ليلة !

عودة الصوت !

قام من النوم وقال : آه

وقالها مرة أخرى . وانتفض جالساً ليقوطا مرة ثالثة . . . ويشرب حلقه بيده . . . ويدق صدره وظهره . ويشرب كوباً من الماء . وينطلق إلى الحمام ويسعل بصوت عال . . ولكنه لا يسمع شيئاً . لقد ذهب صوته . إن الحبال التي كان الصوت يتساقطها قد انقطعت . . . إن صوته في بئر . كأن حنجرتة قد هبطت إلى معدته .. إنها تتكلم هناك ، فلها صوت يجيء على هيئة مخص .

أنه حزين . أن الذين يقولون له أنه ابتلع حنجرتة سهواً يؤلمونه جداً . أنه لم يعد يضحك . بل لا يدرى كيف يضحك . يمد يده إلى التليفون ليتكلم . . . مع من ؟ وكيف ؟ فكل ما يخرج من فمه هواء . . . هواء يخرج من الخلق كأنه هواء الحماسين فيه تراب ورمل . . . ويرتدى ملبسه وتعترض أمه طريقه . . . فيتظاهر بأن في فمه ماء . . . ولا ينطق فتقول له : مالك أسنانك تاني . . . مش قلنا بلاش سجائر . . . وبلاش سهر . . . أبوك كان كده . . . أخرتك زيه !

ولكنه لا ينطق . لقد ضاع أمله . أنه كان يحلم بأن يكون مديعاً . وأن يقول هنا القاهرة . . . بصورة غنائية . . . لقد سمعنا منه « هنا القاهرة »

ألف المرات ... وسمعنا منه كيف يقدم أم كلثوم لخضرأت السيدات
والسادة وكيف يصف فستانها وحليها ويصف صوتها وشعر أحمد رامى ...
سمعنا هذا مئات المرات ... وتمينا له النجاح حتى يحمل السادة والسيدات
بعض ما تعانيه معه من عذاب ... كل شيء ضاع ...

وحمل حقيبة في يده وتذكرة الطائرة وسافر إلى ألمانيا ...

ولا شيء يجعل الإنسان يشعر بأن الصوت عضو جميل ، إلا هذا
الصديق فصوته يشبه الضوضاء العجيبة الموجودة على أرصفة محطات
السكك الحديدية ... فأنت عندما تجلس إلى جواره يذكرك ببائع السميط
وبائع الصحف ، وصوت الكمسارى ، وهو يتشاجر مع أحد المسافرين
دون تذكرة ..

والصوت عضو جميل .. كالقلم والعين والأنف والساق . . ونحن
في اللغة العامية نقول «الحس» ومعناها الصوت . والحس معناه الإحساس ،
وهذا معنى جميل . فالصوت هو كل أحساسنا ، كل ما فينا من عقل
وفهم وقدرة على التعبير . والفلاسفة كانوا يقولون أن الإنسان حيوان ناطق ،
أى حيوان له حس ... له إحساس ، له ... صوت ... له قدرة على أن
يجعل أفكاره مسموعة .. فالصوت عضو جميل ، فيه جمال العين ، ودفء
الشفاه ، وسحر الساق ...

أنه نعمة ، أنه هبة ، أنه رأس مال . . . اسألوا عبد الوهاب وأم

كلثوم وعبد الحليم

وسحر المرأة في صوتها . وأنا أعتقد أن أجمل صوت في الدنيا هو

صوت الممثلة الإيطالية اليانوره روسي دراجو ... هذا رأي ورأي هذا الصديق الضائع الصوت والصيت ... أن الحبال الصوتية عنده تتحول إلى كرباج ، إن صوته يتحول إلى سوط يوجع ويؤلم أكثر الناس حبا له ، ويوجع أمه التي تحبه أكثر من أى إنسان فى الدنيا . ولا أعرف اسم الشاعر الذى كان يقول : لا توجد امرأة واحدة لا أستطيع أن أنتصر عليها بشرط ألا تفتح فيها . . . لأنها إذا تكلمت فقد استخدمت أقوى أسلحة الشيطان !

وكان صديقنا هذا يغنى أيضاً ويقفل الراديو عندما يستمع إلى عبد الحليم أو نجاة ويقول : حظوظ !

وكانت تمشى وراءه جبال من لعناتنا وأنهار من دموعنا . . .

وكان فى نيتى أن أدعو له وأصلى من أجله ... لولا الخطاب الذى بعث به من ألمانيا ... إننى لا أصدق ما أقرأ ... الخط على الآلة الكاتبة ... التوقيع للدكتور « الفرد ... » ... لقد أعطيت الخطاب لهذا الصديق وذاك . . ولا أحد يصدق الخطاب أو يصدق الطبيب الذى يقول : أن صوته قد تخاذل وأنهار لأنه قليل الكلام . وأنه سيعيد إليه صوته !

إذن . . . ستكون حباله الصوتية ، مشانق لكل الأصدقاء !

كنز لا يفنى

فى عيني صور متتابعة لأناس راضين ضاحكين . أحدهم يجلس على الأرض فى شارع فؤاد يمزق إطارات السيارات ويصنع منها نعالا للأحذية القديمة . وفى استطاعتك أن تمر أمامه وأن تبسم له . أو تحيه . انظر إلى وجهه إيه يمتلىء بالدم والنور ويضحك ويحييك . ولا تختفى الابتسامة بسرعة . وإنما تظل عالقة بوجهه مضيئة كعلامات المرور . .

من أين له هذا الرضى ؟ هذه القناعة ؟ هذه السعادة ؟

إنه يجلس على الأرض . على قطعة من الحجر . . . وظهره للحائط . ورجلاه ممدودتان . . .

أهو يغترف من ذلك الكثر الذى يسمونه القناعة . والقناعة كثر لا يفنى . أهو الصبر على ما عنده . وليس عنده شيء . . . أهو الإيمان ؟ الإيمان بماذا ؟ أهى طبيعة الوجه أن تمتلىء بالنور والسعادة ؟

وسيدة أخرى تحمل على رأسها « مشنة » بالقول السودانى . وجهها لامع وساقاها مغسولتان دائماً . وهى إذا سارت فإنها تتثنى وتوزع ابتسامتها أكثر مما توزع بضاعتها ولا تكف عن الضحك أبداً ولا تبسّم أبداً . ظلت أرقبها مسافة طويلة . إن أحداً لا يشتري منها . ومع ذلك فهى لا تبخل على أحد بابتسامة أو بتحية أو بإغراء .. ولكنها تضحك دائماً وتمد يدها

إلى المشنة تأكل مما تحمل أيضاً . أنها تنوب عن الزبائن في تذوق هذا
السوداني الساخن — كما تسميه . .

نفس الوجه . نفس الابتسامة . . والينبوع الحالد . يتفجر من وجهها
وعينها وصوتها ومشيتها . . .

أهو الصبر الذي هو مفتاح الفرج ؟

أهي طبيعتنا المصرية ؟ ولكن هل هناك شيء اسمه « طبيعة » مصرية
وطبيعة إنجليزية أو فرنسية . . . ؟ أم أنها طبيعة واحدة لكل الناس ؟ أهى
صفات شخصية ؟ ولكن كيف تكون شخصية ويتصف بها معظم الناس ؟

ورجل ثالث جاء ضيفاً علينا نحن رواد « البن البرازيلي » . . . رجل
بجلباب وجاكته يبيع كرافتات صنعت من الجلد، أنها جميعاً تشبه كرافتة
توفيق الحكيم . . . غير قابلة للكسر ولا الغسل وينادى عليها بأسلوب
خاص ويقول : فكرة جميلة جداً . . . الفكرة دى جميلة جداً . . . جداً .

ويروح ويحيى في شارع سليمان باشا بين دور السينما ويعترض
المتفرجين ويضحك الناس عندما يرونه أو عندما يفاجأون بأسلوبه
الخاص في النداء على الكرافتات ويقتنعون معه بأن الفكرة جميلة جداً . .
وأنها فكرة فقط . ولكن يذأ واحدة لا تمتد إلى شراء هذه الكرافتات ولم
أر أحداً غيرى اشترى منه كرافتة واحدة . . ولكن الرجل صاحب الجلباب
والجاكتة لا يكف عن الابتسام ولا عن الفكرة الجميلة جداً . . . ويظل
يروح ويحيى كأنه كرافتة . وكأنه معلق في شاعة . ولا تمتد إليه يد أو
حتى يكلمه إنسان . . . ويضحك !

هذا الابتسام أو هذا الضحك أو هذه القناعة ما معناها ؟ هل معناها أن هؤلاء الناس نفوسهم لم تصدأ . وأن جذوة حياتهم لم تخبأ ؟ ولماذا ؟ هل هي روح المقاومة لقسوة الحياة ؟ أهو الإيمان الذي يمدهم بأسلحة وعتاد لا ينفد ؟ أهو الانتظار السعيد ليوم الفرج ؟ أهو العالم الصغير المحدود الذي يتحركون فيه ، والذي يحد شمالاً ببائع البرتقال وجنوباً ببائع ورق اليانصيب وشرقاً بمحطة الترام . . وغرباً بالحائط . . وهل إذا كان عالمنا محدوداً كانت متاعبنا أقل وهمومنا أخف . . .

هل هذا العالم المحدود هو الذي يجعل بائع الفجل مثلاً يضع ساقاً على ساق ويقول : أنا سلطان زمانى . . .

أما حدود هذه السلطنة فهي جانب من جانب من شارع صغير أو حارة مسدودة .

أهو نفس العالم الذي صوره « لأكسنس » الذي فاز بجائزة نوبل العام الماضى فى قصة « سالكا فالكا » . فهو فى هذه القصة يقدم لنا أناساً يعيشون فى جزيرة تغطيها الثلوج وتكتسحها العواصف أو الثلوج العاصفة . . . يعيشون فى عزلة جليدية عن العالم كله . . . ويتحكم فيهم صاحب الزورق أو بائع السمك . . . وعندما تلعب الخمر الرديئة برأس صاحب الزورق يقف على منضدة ويعلن أنه سيد البحار . وحاكم الجزيرة وأنه الذى يمسك الجوع عن كل الناس . وأولاه لانعدمت الإنسانية كلها . . . إنهم يعيشون فى عالم محدود جداً وهم راضون وقانعون وبعضهم يحسد البعض . وفيهم متدينون . لأنهم لا يدرون ماذا يصنعون أمام الجليد

والعواصف والبحر والخوف والفقر .. لا شيء إلا الصلاة . وفيهم ملحدون .
لأنهم لا يخافون أحداً أو شيئاً . لأنهم يملكون وسائل أحياء الناس . ولذلك
فهم حكام مشيدون أو آلهة . .

أنه العالم المحدود الذى يملأ قلوب الناس بالسعادة ...

وعندما ذهب « جيلفر » إلى بلاد الأقزام قابله الملك والوزراء وسألوه :
هل رأيت أروع من بلادنا ؟ هل سمعت عن أناس أقوى وأعظم منا ؟
هل شاهدت هندسة وعمارة وفناً أجمل مما فى بلادنا ؟
وضحك الملك وتمايل الوزراء . فقد سكت جيلفر . وسكوته ما معناه ؟
ليس معناه أن الملك قد أقنعه بشيء .

والملك سعيد وحاشيته ووزرائه والشعب سعيد فى هذه الدولة المحدودة
التي يقطعها جيلفر طولا وعرضاً فى بضعة دقائق . . .
إنه العالم المحدود المريح . . إنها القناعة التي تشبه ذباب « تسي تسي »
الذى إذا لدغ إنساناً جعله ينام وينام إلى الأبد ...
إننى لا أحسد أحداً من هؤلاء على الرصيد الذى لا ينفد من الابتسام
والقناعة . ولكن أتمنى القليل مما لديهم دون أن أجلس وظهري إلى الحائط
أو أبيع الفكرة الجميلة جداً . . !

سبع صنایع ..

هو كل هؤلاء ... ليسانسيه فى الحقوق ... ليسانسيه فى الآداب
مرتین ... مرة فى التاريخ ومرة فى اللغة الفرنسية ... ومصارع فاز بعدد
من البطولات فى حمل الأثقال ... وفاز بالمرتبة الأولى فى جمال الأجسام .
وموسيقار وشاعر وطالب ماجستير يدرس موضوعاً لم يتناوله أحد قبله وهو
الموسيقى عند قدماء المصريين ... وموظف فى الدرجة الثالثة وفاشل فى
حبه الأول والأخير !

واسمه : ی . . من الأسكندرية وله قصة ..

أولها أن يعقوب كان تلميذاً ضعيفاً ... وكانت أمه تبخاف عليه أن
يسقط فى الطريق فيموت ... فكانت تصونه فى البيت . تقفل عليه
الباب حتى لا يصدمه الهواء . وتسارع إلى النافذة فتقفلهما فى وجه الشمس .
وازداد الفتى ضعفاً ... وطلبت إليه أمه أن يمارس أى نشاط يتفق مع
هذا الهزال ... وبدأ يحرك أصابعه على الكمان ... وبدأت حركة غير
عادية تدب فى جسمه كله ... كأن عملاقاً هائلاً قد تربع فى أحشائه .
فإذا هو ينتفض ويدفع فيضاً من الحياة فى ذراعيه وفى صدره وفى
ظهره ... أو كأن مجموعة هائلة من الأفاعى قد هربت من قفصه الصدرى
فتسربت إلى ذراعيه والتفت عليها . وإلى رجليه ... لقد قامت القيامة فى

جسم يعقوب واختفى الشاب المريض ... وصحت الأفاعى على صوت الكمان فقامت تتلوى ... وراحت تضرب وتصارع وتحمل ١٦٠ كيلو وهو ما يزال فى السابعة عشرة من عمره ... وكان التصفيق حادا وكانت بطولة ... وإذا هو يسبح فى الماء بطلا ... وعند حافة الشاطئ يلتقى بالعازف العالمى « جاك » أحد أعضاء فرقة روبسون المطرب المعروف وإذا هو ينقذه من الهلاك ... ويتطلع جاك إلى أصابع منقذه ويدهش كيف أن هذا الوحش له هذه الأنامل الموسيقية ... ويكتشف أنه لم يخطئ ... فهذا الشاب موسيقار ... ويدعوه للعمل معه فى لندن ويفضل ... البقاء فى مصر لينال ليسانس الحقوق وهو فى التاسعة عشرة من عمره ويصبح بطلا للأسكندرية ... ولمصر، ويصبح ملكاً فى لحمال الأجسام ... وله صور وقصص ومعجبون ومعجبات وتقع عينه على فتاة ... أو تقع عين فتاة عليه ..

وكانت نظرتة قوية كعضلاته ... وأعجب بالفتاة وأعجبت به الفتاة . أعجبت بالحديد اللين ... ولكن هذه القوى الهائلة مهما كانت فهى خرساء أمام فتاة رقيقة تخرجت فى المدارس الفرنسية ... فلا بد أن تكون هناك لغة أخرى ... فكان ليسانس الآداب فى التاريخ ... وكان الحديث عن غرام الأبطال والملوك والأمراء ... وروميو وجولييت . وأنطونيو وكليوباتره وقيس وليلي ، وكثير وعزة ... ودوقة وندرسور ... وانتهى الكلام ...

ولكن الحب طفل صغير ينام ويصحو على الحوادث .. إنه

ينام ويمدد رجله وذراعيه في قلين اثنين في وقت واحد ... وصحا
الحب يبحث عن لعبة أخرى يلهو بها ... وكانت اللعبة هي الليسانس
الثانية في اللغة الفرنسية ...

والتقيا معاً في لغة واحدة ... وكان الحديث عن غراميات الأدب
الفرنسي وعن التضحية بالدين والوطن والمال من أجل الحب ... ولكن هذا
الكلام كانت قد سمعته من قبل باللغة العربية ... كان كلاماً معاداً ..
وتحركات أصابعه النحيلة مرة أخرى ... أنها كأصابع البيانو وكتب
مقطوعات موسيقية وعشرات تردد في الإذاعات العربية ... ثم
كانت مقابلة للسائح العالمي « فترباتريك » . الذي طلب منه أن يؤلف
له الموسيقى التصويرية لفيلم سياحي عن مصر .. وقد عرض الفيلم في
مصر ... وعندما انتهى ... من وضع موسيقى هذا الفيلم ... مد
فترباتريك أصابعه في جيبه وأخرج دفتر الشيكات وسأله : كم ألفاً تريد؟
ورفض ... أن يتقاضى أى مبلغ من المال لأنه أدى واجباً وطنياً .
ودهش السائح الأمريكي لهذا التفكير الغريب ... ومد يده في جيبه
مرة أخرى وأخرج شيئاً ونادى الخادم وقال له : كوبة ماء من فضلك ...
فلما حضر الخادم أعطاه السائح الأمريكي ورقتين فئة كل واحدة منهما
مائة دولار ! ... وكان ذلك بقشيشاً ... أنى ... لا يخفى اليوم أسفه
ولكنه عندما شاهد الفيلم ورأى اسمه يملأ الشاشة ... وقرأ أنه مؤلف
الموسيقى التصويرية أحسن أن فى جيبه مليوناً من الدولارات .

وذهب وهذه الملايين فى جيبه إلى فتاته ... إنه يرى فيها الجمال

الكامل . أنه يرى أن الطبيعة قد قالت كلمتها فيها ... بل أدلت بكل أقوالها وبصمت بكل أصابعها ، إنه كان ينظر إلى صدرها وهو يعلو ويهبط . فكان يصاب بدوار البحر ... لقد كان البحر الأبيض يخاف منه ، ولكنه أمام هذا البحر الأسمر ، يخاف الاقتراب من الشاطئ .

وتعلقت عينا الفتاة بأحد المعجبين به واختفت معه في بيت الزوجية ... وبقي هو وحده يحمل الكتاب بعد الكتاب في يده ويحتاج الشواطئ والوادي لعل أحداً يقتنع بأنه فنان وليس فيلا أو صرفيلا ... ولكن أحداً لا ينظر إلى أظافره اللامعة أو أصابعه المسحوبة الطويلة ... أن الناس تنزل على إرادة الأغلبية في جسمه ... والأغلبية تقول : أنه مصارع ... والأقلية تقول : أنه فنان ...

وكان لابد أن ينبت الشعر في وادي الفشل العاطفي ... والحب يشبه قوس قزح لا يظهر إلا على سماء ملبدة بالسحب ... فتوالت القصائد عن الندى والفجر والسهر والبكاء والبلبل الذي يسكن جبلا اسمه ... ولكن الفتاة مشغولة بصراخ الأطفال واللبن والبرازة ... والطفل ي يبكي بعضه على بعض ... ويمسح دموعه بثلاثة ليسانسيات .

والقصة لم تنته ... أنه يعمل الآن في إحدى الإدارات التي يستغل فيها كل مواهبه الأدبية والفنية والجسمية والعاطفية ... أنه يعمل في الحجر الضخى !

واستراح الناس

لا يعرف أحد من أين جاء هذا الرجل العجوز . ولا من أين جاءت هذه الفتاة التى تقسم معه ... إلى أن كان أمس وأمس فقط ... كل ما نعرفه نحن أبناء هذه المنطقة أن هذا الرجل العجوز يقيم مع هذه الفتاة منذ سنين . لم يقف فى نافذة ولا فى باب ... بل لم يرها أحد معاً فى البيت أو فى الشارع ... لم يحاول أحد أن يسأل الرجل العجوز فإنه جاد طيب ... ولم يحاول أحد أن يسأل هذه الفتاة فإنها مهذبة رقيقة ... ورقها لا تشجع أحداً على أن يقترب منها أو يسألها ... أنها تقيم بينها وبين الناس ستائر تحول بينهم وبينها ... أنها ليست ستائر سميقة أو قوية ... ولكنها ستائر ... ولا يحاول أحد من الناس أن يخرق هذه الحجب الرقيقة .

وكان الناس ينظرون إلى نافذتها وقد غطتها الستائر . ويقولون إن هذه الفتاة تعيش فى السحاب ... وكان الناس إذا رضوا عنها قالوا : أنها ملاك يحرسه رجل مخلص ... وإذا غضبوا قالوا : هذه هى الأميرة وهذا هو الشيخوخة وهذه هى الشباب .

ولكن أحداً لم يستطع أن يتجاوز حد القول إلى الطرق على الباب والسؤال عن صحة الفتاة ... أن أحداً لا يعلم أنها مريضة ولا أحد يعلم

أنها صحيحة ... أنها بين المرض والصحة ... بين أن تكون ابنة هذا الرجل وبين أن تكون أخته ... ولكن أين أمها وأين أبوها ... بل أين أمه هو وأين أبوه هو ...

وكان الناس يجتمعون على سطوح البيوت يسمعون أنباء هذه الفتاة وهذا العجوز ... فى ساعة محددة من الليل تظهر الفتاة بالقرب من النافذة وتتطلع إلى الجالسين بالقرب من النافذة وتتطلع إلى الجالسين فوق الأسطح وتحيطهم فى أدب ثم تقفل النافذة وتضيء الأنوار وتجلس إلى البيانو .. ويقال أن العجوز كان يجلس إلى جوارها ... فقد عرف الناس ذلك عندما فتح الهواء الشباك مرة . منذ سبعة شهور .

وتظل الفتاة تلعب بأصابعها على البيانو ساعة أو ساعتين ... وينطفئ النور . وتدخل الفتاة غرفتها وتضيء مصباحها ... ويقال أن العجوز يذهب إلى حجرتها ويضيء المصباح بعض الوقت ... وبعد ساعة يحتوى البيت كله ظلام .

هذا يحدث كل يوم ... ومنذ سنوات وقد تعب أهل هذا الحى الذى أعيش فيه من هذه القصة الغريبة ... أو من هذا اللغز وراحوا يفترضون فروضاً بعيدة وقريبة ... وكانوا يفترضون قصصاً وهمية يناقشونها نقاشاً طويلاً ولا يخرجون بنتيجة .

فهناك من يقول أنه جاسوس ... وأنه يقرأ كل الصحف التى تصدر فى مصر بكل اللغات ... وأنه لا يبعد أن يكون صهيونياً وأن يكون خائناً لمصر ...

وبعد ذلك يعتذر أصحاب هذا الرأي عن هذا الظن السيئ... أنهم
يقتسون على هذا الرجل وهذه الفتاة . وسبب ذلك أنهم تعبوا من محاولة
الفهم . تعبوا من التخمين . فانهالوا على العجوز وعلى الفتاة ضرباً
بالإشاعات والتفسيرات الغريبة .

وهناك من يقول أن هذا الرجل يعمل على تهريب الحشيش
والأفيون . . وأن هذه حيلة قد اتخذها حتى لا يلفت إليه الأنظار . .
ولكن ما هذه الحيلة ؟

لا حيلة هناك . . وإنما الرجل يسكن هادئاً في منطقة بولاق التي
لا هدوء فيها ولا راحة عين ولا أذن ولا أنف ولا حنجرة ولا قلب . .
لا راحة في هذه المنطقة ... فلماذا لا يسكن في الزمالك إذا كان هذا رقيقاً .
وحدات مناقشات فوق سطوح البيوت هل هذه ابنته ؟ هل هذه
أخته ؟ هل هي عشيقته ؟

لا جواب على هذه الأسئلة كلها وتعلقت الأسئلة حول هذا البيت
كالأعلام السوداء ... تحجب كل شيء عن العيون والعقول أيضاً ...
وتعب الناس فوق سطوح البيوت وتحت السطوح وفي حجرات
الطعام والنوم ولا بد أنهم تعبوا في مكائهم ...

إلى أن كان أمس عند منتصف الليل فقد انطلق صوت ... إنه لم
يكن صراخاً وإنما كان صوت الليل وقد تمزق قطعة أو قطعتين
وفتحت النافذة ... فلم أجد شيئاً ولم أسمع شيئاً .

وفي الصباح سار نعش صغير ووراءه كل أهل الحي . . أن واحداً

منهم لا يعرف من الفتاة التي ماتت ... ولا يعرف من هذا العجوز الذي يبكي وراءها . . . لقد رأى الناس عجوزاً يبكي فبكوا . رأوا نعشاً يتحرك فساروا ... رأوا يداً ترتجف فمدوا أيديهم إليها وقالوا : البقية في حياتك ... كلنا لها ... الأعمار بيد الله .

وعندما عادوا من هذه الجنازة عرفوا أن التي صرخت في الليل ، لم تكن امرأة وإنما كان العجوز هو الذي ظل يصرخ ساعة بعد ساعة حتى اجتمع حوله كل الناس . . أما العجوز فليس أباه ولا أخاه ولا عشيقها ... إنه زوجها ... لقد كان هذا الرجل طبيباً وكانت هذه مريضة في مستشفى فأحبها وتزوجها . وعرف أنها يتيمة . وعرفت هي أنه يتيم الأب والأم والأخ والأصدقاء ... وعاش هذا الطبيب يعالجها ... لقد جعل بيته مستشفى لها ... ولم تدر هذه الفتاة ماذا تفعل من أجله . إن كل ما تملكه هي أن تعزف على البيانو ... أن أقوى شيء في جسمها كله هو أصابعها ... وحركت أصابعها ... ساعات وساعات ... إنها تسبح له بهذه الأصابع وتدعو له وتشكره وتقبل يديه ورجليه بأصابعها وموسيقاها .. ورضى زوجها وطبيبها وحارسها .. ولكنه كان يعلم أنه لا أمل في الشفاء .. إنه كان يعيش مع امرأة ميتة .. كان يرى حبه يموت في عينيها وفي شفيتها .. يموت بين يديه قصرخ وبكى ودفنها .. ولم يسترح .. واستراح الناس ! .

بقايا كل شيء !

طفاية سجائر . : هذا كل ما تبقى .

فجأة وجدت نفسي وحدى . كل من كان وما كان معى قد اختفى . . . ثلاثى فجأة خرج من الباب أو من النافذة . . لا أعرف . فقد امتدت يد الظلام وسحبت المصابيح والمقاعد والمناضد . . وكل مابقى هو طراطيش كلام فى آذنى . وبقايا روائح وعطور وعرق وسجاير وزكام فى أنفى .

وفى الظلام تلمست طفاية سجائر كانت أمامى . . فيها بقايا سجائر طويلة أطفئت بسرعة . . وسجائر أطفئت على مهل . . وسجائر سحقها أصابع عصبية . . عليها أحمر شفاه . . عليها نار وليس لها دخان .

هذه السجاير التى أمامى أعرف كيف لقيت مصرعها واحدة واحدة هذه السجاير الطويلة رأيتها وهى تموت فى شبابها . . رأيت يداً غليظة تدفنها حية . . إنها سيجار صديقى الذى مالت عليه زوجته تهمس فى أذنه . . وكلما تعالى الهمس زاد ضغط أصابعه على هذه السيجارة الطويلة . . لقد أنكر أنه يعرف من الذى طلبه فى التليفون عدة مرات ولم يشأ أن يرد عليه أو عليها . . ولكن زوجته مصرّة على أنه يعرف

وأن التي طلبته هي خطيبته السابقة وأنها رأتها منذ أسبوعين قريبة من البيت وأنها سمعت . وأنها وأنها . . وتحطمت السيجارة تحت أصابعه . خنقها . . وأدها . كما كان يفعل العرب في الجاهلية . . كانوا يثدّون البنات خوفاً من الفضيحة .

وهذه السيجارة تركها صاحبها تشتعل دون أن يقربها . . إنه يجد لذة في تعذيب الآخرين . يراها ولا يلمسها . يحرقها ولا يطفىء نارها . لقد أخرجها من جيبه بأناقة وأشعلها بعناية . وتركها هناك بهدوء وراح يتفرج عليها بلذة . . إن صديقي هذا يحاول الإقلاع عن التدخين . . لذلك فهو يشتري السجائر ويشعلها ولا يدخنها . . وإنما يضعها على حافة الطاوية . . على حافة الهاوية . . إنه تعب من التدخين . . إنه كالرجل الذي تعب من اللهو . . تعب من عشرة النساء . . تعب . . فهو يتفرج بلذة المنتقم الشامت . وصديقي هذا يحاول أن ينتقم من مئات الألوف من السجائر التي لسعت شفثيه وأحرقت حلقة ومزقت صدره وصبغت بالصفار أصابعه . . وهذه السيجارة ذخنها صاحبها بسرعة . ! وأشعل منها سيجارة أخرى . . أنها بزازة في فم طفل يرضع الهواء . . يموت إذا ابتعدت عن فمه .

وهذه السيجارة عصاً يتوكأ عليها الكلام عندما يخرج من فم هذا الصديق . . إنه لا يتكلم إلا وهي في فمه . . إن كلامه دخان في الهواء . . أو دخان كلام في الهواء . .

حياتنا كلها سجائر . . . متشابهة . . . هذا يدخنها على مهل . . . وهذا بسرعة . . . وهذا يتفرج عليها . . . وهذا يحرقها وتحرقه . . . تمزق صدره وينسحقها . . . السجائر تنهى في أفواهنا أو نحن الذين ننهى عند أطراف السجائر . . . نحن الذين ننقلها بأصابعنا إلى الطفاية . . . أو هي التي ننقلنا . . .

لا أعرف ماذا كنا نقول . . . تكلمنا كثيراً . . . ولكن ماذا قلنا ؟
لا شيء . . . ناقشنا كل مبدأ وكل مذهب في السياسة والاقتصاد والأدب والنقد . . . ولم نتفق على شيء . . . كأننا نتكلم بلغات غير معروفة . . . فكل واحد قال ولم يسمعه أحد . . . كنا ننظر إلى شفثيه لنعرف إنه يتكلم . . . فإذا إطال أطباق شفثيه عرفنا أن المدة المخصصة للكلام قد انتهت . . . فبتكلم بعد ذلك الذي يجواره .

كأننا كومبارس ننتظر أحد الأفلام . . . كأننا ست شخصيات تبحث عن مؤلف . . . كأننا ست عارضات للأزياء ولا تنقصنا إلا الدار التي نعمل فيها . . . كأننا ست سجائر أشعلت وتركت لكي تخدم أنفاسها بنفسها .

كل فكرة قيلت آخمدت في الحال . . . كل فكرة اشتعلت ودخلت رأسى انطفأت في الحال . . . كل الأفكار أسمعها ولا أكاد أفكر فيها حتى أسمع لها صوتاً واحداً : طش . . . وهذا صوتها وهي تنطفئ في رأسى التي هي بحيرة راكدة . أو طفاية سجائر مليئة بالماء . . .

جلسنا وتكلمنا وأطفأنا سجائرها . وانطفأت فينا أفكارنا . . . وقام فأر السبتية بمهمة مدير المسرح فأنزل ستاراً أسود وبدأنا نخبط ونخبط . . .

تماماً كأننا في مسرحية بدأت من آخرها فنزل الستار وسمعنا الدقات التقليدية للمسرح . . ودخلنا في مسرحية عقيلة نسمع فيها ولا نرى . . والذي نفهمه لا يقنعنا ولا يعيننا . . وكل محاولة للكلام أخذت فوراً . . وكل محاولة لاستئناف الكلام هي محاولة لإشعال عقب سيجارة مبللة . . ومددت يدي إلى طفاية السجائر كأنني طفاية أمسكت طفاية . . ومن « أعقاب » كل شيء لففت هذه السيجارة التي قرأتها !

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٤

كتب للمؤلف

- ١ - طريق العذاب .
- ٢ - الوجودية .
- ٣ - وحدي . . ومع الآخرين . .
- ٤ - عذاب كل يوم .
- ٥ - قصص إيطالية .
- ٦ - مدرسة الحب .
- ٧ - ألوان من الحب .
- ٨ - هذه الصغيرة .
- ٩ - دراسات في الأدب الأمريكي
- ١٠ - الإمبراطور جونز .
- ١١ - قصص من الأدب الإيطالي .
- ١٢ - من روائع الأدب العالمي .
- ١٣ - حول العالم في ٢٠٠ يوم .
- ١٤ - اليمن . . . ذلك المجهول . . .
- ١٥ - قالوا . . .
- ١٦ - وداعاً أيها الملل .
- ١٧ - بقايا كل شيء .

٥	قروش ج.ع.م.	١٠٠	مليم في ليبيا	١,٥٠	ديناراً في الجزائر
٦٠	ق. ل	٧٥	فلساً في العراق والأردن	١٥٠	فرنكاً في المغرب
٧٥	ق. س	١٢٠	فلساً في الكويت	١	ريالاً سعوديًّا
٦٠	ملياً في السودان	١٢٥	مليناً في تونس		

لتوفير الشفاء لكل عربي



قلعة الدواء العربي

شركة تنمية الصناعات الكيماوية «سيدا»

تنتج ٣٤ نوعاً من المجموعات الدوائية العالمية

رأس المال مليون جنيه
ميزانية الأبحاث ٥٥,٠٠٠ جنيه
للشركة وكلاء في جميع البلاد العربية

السودان : السيد/عبد الحميد عبد الرحمن أحمد صيدلية الكوفة ص.ب. ٧ أم درمان
ليبيا : شركة الغارابي : محمد الغارابي وشركاه ١٣ شارع القاهرة - طرابلس
الكويت : السيد/عبد السلام العتيقي شارع الكوربا ص.ب. ٦٩٩
قطر : السيد/أحمد خليل البكر صيدلية البكر - ص.ب. الدوحة

السعودية : السيد/حسن عثمان الرهيم مكة المكرمة ص.ب. ١٥٥
العراق : السيد/الصدي عبد الكريم المشاط - منطقة الصناعية
البحرين : السيد/الصدي عبد الرحيم حمدان شارع بساتين عمارات
سوريا : السيد/الصدي كمال شحارة ص.ب. ٩٩٣ حلب

عزة : صيدلية أبو غزالة - السيد/الصدي منيب أبو غزالة شارع الخنازير - غزة

الإدارة والصانع وقسم البيع : شارع الأهرام بالطابية - جيزة ت. ٨٩٤٩٦٩

إدارة العلاقات العامة وقسم التصدير : ٢ من شريف عمارة اللواء

ت. ٧٤٠١٥ - ٥٠٥٤٥